(٨٠) سُورَةُ عَبَسَ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم - وأم مكتوم أم أبيه واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهرى من بنى عامر بن لؤى - وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد ابن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم باسلامهم غيرهم ، فقال للنبى ﷺ أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، وكرر ذلك ، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه فنزلت هذه الآية ، وكان رسول الله ﷺ يكرمه ، ويقول إذا رآه «مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى» ويقول هل لك من حاجة ، واستخلفه على المدينة مرتين ، وفى الموضع سؤالات :

﴿الأول﴾ أن ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر ، فكيف عاتب الله رسوله على أن أدب ابن أم مكتوم وزجره ؟ وإنما قلنا إنه كان يستحق التأديب لوجوه (أحدها) أنه وإن كان لفقد بصره لا يرى القوم ، لكنه لصحة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم أولئك الكفار ، وكان يسمع أصواتهم أيضاً ، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمام النبى صلى الله عليه وسلم بشأنهم ، فكان إقدامه على قطع كلام النبى صلى الله عليه وسلم وإلقاء غرض نفسه فى البين قبل تمام غرض النبى إيذاء للنبى عليه الصلاة والسلام ، وذلك معصية عظيمة (وثانيها) أن الأهم مقدم على المهم ، وهو كان قد أسلم وتعلم ، ما كان يحتاج إليه من أمر الدين ، أما أولئك الكفار فما كانوا قد أسلموا ، وهو إسلامهم سبباً لإسلام جمع عظيم ، فالقاء ابن أم مكتوم ، ذلك الكلام فى البين كالسبب فى قطع ذلك الخير العظيم ، لغرض قليل وذلك محرم (وثالثها) أنه تعالى قال (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) فنهاهم عن مجرد النداء إلا فى الوقت ، فههنا هذا النداء الذى صار كالصارف للكفار عن قبول الإيمان وكالقاطع

على الرسول أعظم مهماته ، اولى أن يكون ذنباً ومعصية ، فثبت بهذا أن الذى فعله ابن أم مكتوم كان ذنباً ومعصية ، وأن الذى فعله الرسول كان هو الواجب ، وعند هذا يتوجه السؤال فى أنه كيف عاتبه الله تعالى على ذلك الفعل ؟ .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه تعالى لما عاتبه على مجرد أنه عبس فى وجهه ، كان تعظيما عظيما من الله سبحانه لابن أم مكتوم ، وإذا كان كذلك فكيف يليق بمثل هذا التعظيم أن يذكره باسم الأعمى مع أن ذكر الإنسان بهذا الوصف يقتضى تحقير شأنه جداً ؟ .

﴿ السؤال الثالث ﴾ الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام كان مأذوناً فى أن يعامل أصحابه على حسب ما يراه مصلحة ، وأنه عليه الصلاة والسلام كثيراً ما كان يؤدب أصحابه ويزجرهم عن أشياء ، وكيف لايكون كذلك وهو عليه الصلاة والسلام إنما بعث ليؤدبهم وليعلمهم محاسن الآداب ، وإذا كان كذلك كان ذلك التعبيس داخلا فى إذن الله تعالى إياه فى تأديب أصحابه ، وإذا كان ذلك مأذوناً فيه ، فكيف وقعت المعاتبة عليه ؟ فهذا جملة مايتعلق بهذا الموضع من الإشكالات (والجواب) عن السؤال الأول من وجهين (الأول) أن الأمر وإن كان على ما ذكرتم إلا أن ظاهر الواقعة يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء وانكسار قلوب الفقراء ، فلهذا السبب حصلت المعاتبة ، ونظيره قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) ، (والوجه الثانى) لعل هذا العتاب لم يقع على ما صدر من الرسول عليه الصلاة والسلام من الفعل الظاهر ، بل على ما كان منه فى قلبه ، وهو أن قلبه عليه الصلاة والسلام كان قد مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم ، وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه وعدم قرابته وقلة شرفه ، فلما وقع التعبيس والتولى لهذه الداعية وقعت المعاتبة ، لا على التأديب، بل على التأديب لأجل هذه الداعية (والجواب) عن السؤال الثانى أن ذكره بلفظ الأعمى ليس لتحقير شأنه ، بل كأنه قيل إنه بسبب عماه استحق مزيد الرفق والرأفة ، فكيف يليق بك يامحمد أن تخصه بالغلظة (والجواب) عن السؤال الثالث أنه كان مأذوناً فى تأديب أصحابه لكن ههنا لما أوهم تقديم الأغنياء على الفقراء ، وكان ذلك مما يوهم ترجيح الدنيا على الدين ، فلهذا السبب جاءت هذه المعاتبة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء عليهم السلام تمسكوا بهذه الآية وقالوا لما عاتبه الله فى ذلك الفعل ، دل على أن ذلك الفعل كان معصية ، وهذا بعيد فإنا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين لابحسب هذا الاعتبار الواحد ، وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء ، وذلك غير لائق بصلابة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإذا كان كذلك ، كان ذلك جارياً مجرى ترك الاحتياط ، وترك الأفضل ، فلم يكن ذلك ذنباً البتة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أجمع المفسرون على أن الذى عبس وتولى ، هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأجمعوا [على] أن الأعمى هو ابن أم مكتوم ، وقرىء عبس بالتشديد للمبالغة ونحوه كلح فى

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾

كاح ، أن جاءه منصوب بتولى أو بعبس على اختلاف المذهبين فى إعمال الأقرب أو الأبعد ومعناه عبس ، لأن جاءه الأعمى ، وأعرض لذلك ، وقرىء أن جاءه بهمزتين ، وبألف بينهما وقف على (عبس وتولى) ثم ابتدأ على معنى الأن جاءه الأعمى ، والمراد منه الإنكار عليه ، واعلم أن فى الأخبار عما فرط من رسول الله ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار ، كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه ، ثم يقبل على الجانى إذا حمى فى الشكاية مواجهاً بالتوبيخ وإلزام الحجة

قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ فيه قولان (الأول) أى شىء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى لعله يتطهر بما يتلقن منك ، من الجهل أو الإثم ، أو يتعظ فتنفعه ذكراك أى موعظتك ، فتكون له لطفاً فى بعض الطاعات ، وبالجملة فلعل ذلك العلم الذى يتلقفه عنك يطهره عن بعض مالا ينبغى ، وهو الجهل والمعصية ، أو يشغله ببعض ما ينبغى وهو الطاعة (الثانى) أن الضمير فى لعله للكافر ، بمعنى أنت طمعت فى أن يزكى الكافر بالإسلام أو يذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق (وما يدريك) أن ما طمعت فيه كائن ، وقرىء فتنفعه بالرفع عطفاً على يذكر ، وبالنصب جواباً للعل ، كقوله (فأطلع إلى إله موسى) وقد مر .

ثم قال ﴿ أما من استغنى ﴾ قال عطاء يريد عن الإيمان ، وقال الكلبى استغنى عن الله ، وقال بعضهم استغنى أثرى وهو فاسد ههنا ، لأن إقبال النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن لثروتهم ومالهم حتى يقال له أما من أثرى ، فأنت تقبل عليه ، ولأنه قال (وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى) ولم يقل وهو فقير عديم ، ومن قال : أما من استغنى بماله فهو صحيح ، لأن المعنى أنه استغنى عن الإيمان والقرآن ، بماله من المال .

قوله تعالى : ﴿ فأنت له تصدى ﴾ قال الزجاج : أى أنت تقبل عليه وتتعرض له وتميل إليه ، يقال تصدى فلان لفلان ، يتصدى إذا تعرض له ، والأصل فيه تصدد يتصدى من الصدد ، وهو ما استقبلك وصار قبالتك ، وقد ذكرنا مثل هذا فى قوله (إلا مكاء وتصدية) وقرىء (تصدى) بالتشديد بإدغام التاء فى الصاد ، وقرأ أبو جعفر : تصدى ، بضم التاء ، أى تعرض ، ومعناه يدعوك داع إلى التصدى له من الحرص ، والتهالك على إسلامه

ثم قال تعالى ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ المعنى لا شىء عليك فى أن لا يسلم من تدعوه إلى الإسلام ، فإنه ليس عليك إلا البلاغ ، أى لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم إلى أن تعرض عمن أسلم للاشتغال بدعوتهم .

وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾

ثم قال ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أن يسرع فى طلب الخير ، كقوله (فاسعوا إلى ذكر الله) .
وقوله ﴿ وهو يخشى ﴾ فيه ثلاثة أوجه يخشى الله ويخافه فى أن لا يهتم بأداء تكاليفه ، أو يخشى الكفار وأذاهم فى إتيانك ، أو يخشى الكبوة فإنه كان أعمى ، وما كان له قائد .
ثم قال ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أى تتشاغل من لهى عن الشيء والتهى و تلهى ، وقرأ طلحة ابن مصرف . تتلهى ، وقرأ أبو جعفر (تلهى) أى يلهيك شأن الصناديد ، فإن قيل قوله (فأنت له تصدى .. فأنت عنه تلهى) كان فيه اختصاصاً ، قلنا نعم ، ومعناه إنكار التصدى والتلهى عنه ، أى مثلك ، خصوصاً لا ينبغى أن يتصدى للغنى ، ويتلهى عن الفقير .
ثم قال ﴿ كلا ﴾ وهو ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله . قال الحسن : لما تلا جبريل عن النبي ﷺ هذه الآيات عاد وجهه ، كأنما أسف الرماد فيه ينتظر ماذا يحكم الله عليه ، فلما قال (كلا) سرى منه ، أى لا تفعل مثل ذلك ، وقد بينا نحن أن ذلك محمول على ترك الأولى .
ثم قال ﴿ إنها تذكرة ﴾ وفيه سؤالان :
﴿ الأول ﴾ قوله (إنها) ضمير المؤنث ، وقوله (فمن شاء ذكره) ضمير المذكر ، والضميران عائدان إلى شيء واحد ، فكيف القول فيه ؟ (الجواب) وفيه وجهان (الأول) أن قوله (إنها) ضمير المؤنث ، قال مقاتل : يعنى آيات القرآن ، وقال الكلبي : يعنى هذه السورة وهو قول الأخفش والضمير فى قوله (فمن شاء ذكره) عائد إلى التذكرة أيضاً ، لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ (الثانى) قال صاحب النظم إنها تذكرة يعنى به القرآن والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة ، ولو ذكره لجاز كما قال فى موضع آخر (كلا إنه تذكرة) والدليل على أن قوله (إنها تذكرة) المراد به القرآن قوله (فمن شاء ذكره) .
﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف اتصال هذه الآية بما قبلها ؟ (الجواب) من وجهين (الأول) كأنه قيل : هذا التأديب الذى أوحيته إليك وعرفته لك فى إجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا أثبت فى اللوح المحفوظ الذى قد وكل بحفظه أكابر الملائكة (الثانى) كأنه قيل : هذا القرآن قد بلغ فى العظمة إلى هذا الحد العظيم ، فأى حاجة به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار ، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه فلا تلتفت إليهم ولا تشغل قلبك بهم ، وإياك وأن تعرض عمن آمن به تطييباً لقلب أرباب الدنيا .

فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ﴾ .

اعلم أنه تعالى وصف تلك التذكرة بأمرين (الأول) قوله (فمن شاء ذكره) أى هذه تذكرة بينة ظاهرة بحيث لو أرادوا فهمها والاتعاظ بها والعمل بموجبها لقدروا عليه (والثانى) قوله (فى صحف مكرمة) أى تلك التذكرة موجودة فى هذه الصحف المكرمة ، والمراد من ذلك تعظيم حال القرآن والتنويه بذكره والمعنى أن هذه التذكرة مثبتة فى صحف ، والمراد من الصحف قولان (الأول) أنها صحف منتسخة من اللوح مكرمة عندالله تعالى مرفوعة فى السماء السابعة أومرفوعة المقدار مطهرعن أيدى الشياطين ، أو المراد مطهرة بسبب أنها لا يمسها إلا المطهرون وهم الملائكة .

قوله تعالى : ﴿ بأيدى سفره ، كرام بررة ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الله تعالى وصف الملائكة بثلاثة أنواع من الصفات :

﴿ أولها ﴾ أنهم سفرة وفيه قولان (الأول) قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة هم الكتبة من الملائكة ، قال الزجاج السفرة الكتبة واحدها سافر مثل كتبة وكاتب ، وإنما قيل للكتبة سفرة وللكاتب سافر ، لأن معناه أنه الذى يبين الشيء ويوضحه يقال سفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها (القول الثانى) وهو اختيار الفراء أن السفرة ههنا هم الملائكة الذين يسفرون بالوحى بين الله وبين رسله ، واحدها سافر ، والعرب تقول : سفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم ، فجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله وتأديته ، كالسفير الذى يصلح به بين القوم ، وأنشدوا :

وما أدع السفارة بين قومى   وما أمشى بغش إن مشيت

واعلم أن أصل السفارة من الكشف ، والكاتب إنما يسمى سافراً لأنه يكشف ، والسفير إنما سمى سفيراً أيضا لأنه يكشف ، وهؤلاء الملائكة لما كانوا وسايط بين الله وبين البشر فى البيان والهداية والعلم ، لاجرم سموا سفرة .

﴿ الصفة الثانية لهؤلاء الملائكة ﴾ (أنهم كرام) قال مقاتل : كرام على ربهم ، وقال عطاء : يريد أنهم يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا مع زوجته للجماع وعند قضاء الحاجة .

﴿ الصفة الثانية ﴾ أنهم (بررة) قال مقاتل : مطيعين ، وبررة جمع بار ، قال الفراء : لا يقولون فعلة للجمع إلا والواحد منه فاعل مثل كافر وكفرة ، وفاجر وفجرة (القول الثانى) فى تفسير الصحف : أنها هى صحف الأنبياء لقوله (إن هذا لفى الصحف الأولى) يعنى أن هذه التذكرة مثبتة فى صحف الأنبياء المتقدمين ، والسفرة الكرام البررة هم أصحاب رسول الله ﷺ ، وقيل هم القراء .

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (مطهرة بأيدى سفرة) يقتضى أن طهارة تلك الصحف إنما حصلت بأيدى هؤلاء السفرة ، فقال القفال فى تقريره : لما كان لا يمسها إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسها .

قوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين ، عجب عباده المؤمنين من ذلك ، فكأنه قيل : وأى سبب فى هذا العجب والترفع مع أن أوله نطفة قذرة وآخره جيفة مذرة ، وفيما بين الوقتين حمال عذرة ، فلاجرم ذكر تعالى ما يصلح أن يكون علاجاً لعجبهم ، وما يصلح أن يكون علاجاً لكفرهم ، فإن خلقة الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع ، ولأن يستدل بها على القول بالبعث والحشر والنشر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال المفسرون : نزلت الآية فى عتبة بن أبى لهب ، وقال آخرون : المراد بالإنسان الذين أقبل الرسول عليهم وترك ابن أم مكتوم بسببهم ، وقال آخرون بل المراد ذم كل غنى ترفع على فقير بسبب الغنى والفقر ، والذى يدل على ذلك وجوه (أحدها) أنه تعالى ذمهم لترفعهم فوجب أن يعم الحكم بسبب عموم العلة (وثانيها) أنه تعالى زيف طريقتهم بسبب حقارة حال الإنسان فى الابتداء والانتهاء على ما قال (من نطفة خلقه ، ثم أماته فأقبره) وعموم هذا الزجر يقتضى عموم الحكم (وثالثها) وهو أن حمل اللفظ على هذا الوجه أكثر فائدة ، واللفظ محتمل له فوجب حمله عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (قتل الإنسان) دعاء عليه وهى من أشنع دعواتهم ، لأن القتل غاية شدائد الدنيا وما أكفره تعجب من إفراطه فى كفران نعمة الله ، فقوله (قتل الانسان) تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب ، وقوله (ما أكفره) تنبيه على أنواع القبائح والمنكرات ، فإن قيل الدعاء على الإنسان إنما يليق بالعاجز والقادر على الكل كيف يليق به ذاك ؟ والتعجب أيضاً إنما يليق بالجاهل بسبب الشىء ، فالعالم بالكل كيف يليق به ذاك ؟ (الجواب) أن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب وتحقيقه ما ذكرنا أنه تعالى بين أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب لأجل أنهم أتوا بأعظم أنواع القبائح ، واعلم أن لكل محدث ثلاث مراتب أوله ووسطه وآخره ، وأنه تعالى ذكر هذه المراتب الثلاثة للانسان .

﴿ أما المرتبة الأولى ﴾ فهى قوله ﴿ من أى شىء خلقه ﴾ وهو استفهام وغرضه زيادة التقرير فى التحقير .

ثم أجاب عن ذلك الاستفهام بقوله ﴿ من نطفة خلقه ﴾ ولا شك أن النطفة شىء حقير مهين

فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾

والغرض منه أن من كان أصله [من] مثل هذا الشيء الحقير، فالتكبر والتجبر لا يكون لائقاً به.

ثم قال ﴿ فقدره ﴾ وفيه وجوه (أحدها) قال الفراء: قدره أطواراً نطفة ثم علقة إلى آخر خلقه وذكراً أو أنثى وسعيداً أو شقياً (وثانيها) قال الزجاج: المعنى قدره على الاستواء كما قال (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا)، (وثالثها) يحتمل أن يكون المراد وقدر كل عضو في الكمية والكيفية بالقدر اللائق بمصلحته، ونظيره قوله (وخلق كل شيء فقدره تقديراً).

﴿ وأما المرتبة الثانية ﴾ وهي المرتبة المتوسطة فهي قوله تعالى ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ وفيه مسألتان

﴿ المسألة الأولى ﴾ نصب السبيل بإضمار يسره، وفسره بيسره،

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في تفسيره أقوالا (أحدها) قال بعضهم المراد تسهيل خروجه من بطن أمه، قالوا إنه كان رأس المولود في بطن أمه من فوق ورجلاه من تحت، فإذا جاء وقت الخروج انقلب، فمن الذي أعطاه ذلك الإلهام إلا الله، ومما يؤكد هذا التأويل أن خروجه حياً من ذلك المنفذ الضيق من أعجب العجائب (وثانيها) قال أبو مسلم: المراد من هذه الآية، هو المراد من قوله (وهديناه النجدين) فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا، وبين كل خير وشر يتعلق بالدين أي جعلناه متمكنا من سلوك سبيل الخير والشر، والتيسير يدخل فيه الإقدار والتعريف والعقل وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب (وثالثها) أن هذا مخصوص بأمر الدين، لأن لفظ السبيل مشعر بأن المقصود أحوال الدنيا [لا] أمور تحصل في الآخرة.

﴿ وأما المرتبة الثانية ﴾ وهي المرتبة الأخيرة، فهي قوله تعالى ﴿ ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره ﴾:

واعلم أن هذه المرتبة الثالثة مشتملة أيضاً على ثلاث مراتب، الإماتة، والإقبار، والإنشار، أما الإماتة فقد ذكرنا منافعها في هذا الكتاب، ولا شك أنها هي الواسطة بين حال التكليف والمجازاة، وأما الإقبار فقال الفراء جعله الله مقبوراً ولم يجعله ممن يلقى للطير والسباع، لأن القبر مما أكرم به الانسان قال ولم يقل فقبره، لأن القابر هو الدافن بيده، والمقبر هو الله تعالى، يقال قبر الميت إذا دفنه وأقبر الميت، إذا أمر غيره بأن يجعله في القبر، والعرب تقول بترت ذنب البعير، والله أبتره وعضبت قرن الثور، والله أعضبه، وطردت فلاناً عني، والله أطرده. أي صيره طريداً، وقوله تعالى (ثم إذا شاء أنشره) المراد منه الإحياء [و] البعث، وإنما قال إذا شاء إشعاراً بأن وقته غير معلوم لنا، فتقديمه وتأخيره موكول إلى مشيئة الله تعالى، وأما سائر الأحوال

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾

المذكورة قبل ذلك فإنه يعلم أوقاتها من بعض الوجوه ، إذ الموت وإن لم يعلم الإنسان وقته ففي الجملة يعلم أنه لا يتجاوز فيه إلا حداً معلوماً .

قوله تعالى : ﴿ كلا لما يقض ما أمره ﴾

واعلم أن قوله (كلا) ردع للانسان عن تكبره وترفعه ، أو عن كفره وإصراره على إنكار التوحيد ، وعلى إنكاره البعث والحشر والنشر ، وفي قوله (لما يقض ما أمره) وجوه (أحدها) قال مجاهد لا يقضي أحد جميع ما كان مفروضاً عليه أبداً ، وهو إشارة إلى أن الإنسان لا ينفك عن تقصير البتة ، وهذا التفسير عندي فيه نظر ، لأن قوله (لما يقض) الضمير فيه عائد إلى المذكور السابق ، وهو الإنسان في قوله (قتل الإنسان ما أكفره) وليس المراد من الإنسان ههنا جميع الناس بل الإنسان الكافر فقوله (لما يقض) كيف يمكن حمله على جميع الناس (وثانيها) أن يكون المعنى أن الإنسان المترفع المتكبر لم يقض ما أمر به من ترك التكبر ، إذ المعنى أن ذلك الإنسان الكافر لم يقض ما أمر به من التأمل في دلائل الله ، والتدبر في عجائب خلقه وبينات حكمته (وثالثها) قال الأستاذ أبو بكر بن فورك : كلا لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان وترك التكبر ، بل أمره بما لم يقض له به .

واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس ، فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق فجرى ههنا على تلك العادة وذكر دلائل الآفاق وبدأ بما يحتاج الإنسان إليه .

فقال ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ الذي يعيش به كيف دبرنا أمره ، ولا شك أنه موضع الاعتبار ، فإن الطعام الذي يتناول الانسان له حالتان (إحداهما) متقدمة وهي الأمور التي لابد من وجودها حتى يدخل ذلك الطعام في الوجود (والثانية) متأخرة ، وهي الأمور التي لابد منها في بدن الانسان حتى يحصل له الانتفاع بذلك الطعام المأكول ، ولما كان النوع الأول أظهر للحس وأبعد عن الشبهة ، لا جرم اكتفى الله تعالى بذكره ، لأن دلائل القرآن لابد وأن تكون بحيث ينتفع بها كل الخلق ، فلا بد وأن تكون أبعد عن اللبس والشبهة ، وهذا هو المراد من قوله (فلينظر الإنسان إلى طعامه) واعلم أن النبت إنما يحصل من القطر النازل من السماء الواقع في الأرض ، فالسماء كالذكر ، والأرض كالأنثى فذكر في بيان نزل القطر .

قوله تعالى : ﴿ أنا صببنا الماء صباً ﴾ وفيه مسألتان :

ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (صببنا) المراد منه الغيث ، ثم انظر فى أنه كيف حدث الغيث المشتمل على هذه المياه العظيمة ، و كيف بقى معلقاً فى جو السماء مع غاية ثقله ، وتأمل فى أسبابه القريبة والبعيدة ، حتى يلوح لك شيء من آثار نور الله وعدله وحكمته ، وفى تدبير خلقة هذا العالم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء إنا بالكسر ، وهو على الاستئناف ، وأنا بالفتح على البدن من الطعام والتقدير (فلينظر الإنسان) إلى أنا كيف (صببنا الماء) قال أبو على الفارسى من قرأ بكسر إنا كان ذلك تفسيراً للنظر إلى طعامه كما أن قوله (لهم مغفرة) تفسير للوعد ، ومن فتح فعلى معنى البدل بدل الاشتمال ، لأن هذه الأشياء تشتمل على كون الطعام وحدوثه ، فهو كقوله (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه) وقوله (قتل أصحاب الأخدود ، النار) .

قوله تعالى : ﴿ ثم شققنا الارض شقاً ﴾ والمراد شق الأرض بالنبات ، ثم ذكر تعالى ثمانية أنواع من النبات :

(أولها) الحب : وهو المشار إليه بقوله ﴿ فأنبتنا فيها حباً ﴾ وهو كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما ، وإنما قدم ذلك لأنه كالأصل فى الأغذية .

(وثانيها) قوله تعالى ﴿ وعنباً ﴾ وإنما ذكره بعد الحب لأنه غذا من وجه وفاكهة من وجه .

(وثالثها) قوله تعالى ﴿ وقضباً ﴾ وفيه قولان

﴿ الأول ﴾ أنه الرطبة وهى التى إذا يبست سميت بالقت ، وأهل مكة يسمونها بالقضب وأصله من القطع ، وذلك لأنه يقضب مرة بعد أخرى ، وكذلك للقضيب لأنه يقضب أى يقطع . وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل واختيار الفراء وأبى عبيدة والأصمعى .

﴿ والثانى ﴾ قال المبرد القضب هو العلف بعينه ، وأصله من أنه يقضب أى يقطع وهو قول الحسن .

(والرابع والخامس) قوله تعالى ﴿ وزيتوناً ونخلا ﴾ ومنافعهما قد تقدمت فى هذا الكتاب .

(وسادسها) قوله تعالى ﴿ وحدائق غلبا ﴾ الأصل فى الوصف بالغلب الرقاب فالغلب الغلاظ الأعناق الواحد أغلب ، يقال أسد أغلب ، ثم ههنا قولان :

﴿ الأول ﴾ أن يكون المراد وصف كل حديقة بأن أشجارها متكاثفة متقاربة ، وهذا قول مجاهد ومقاتل قالا الغلب الملتفة الشجر بعضه فى بعض ، يقال اغلوب العشب واغلولبت الأرض إذا التف عشبها .

وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾

﴿ والثانى ﴾ أن يكون المراد وصف كل واحد من الأشجار بالغلظ والعظم ، قال عطاء عن ابن عباس يريد الشجر العظام ، وقال الفراء الغلب ماغلظ من النخل ،

(وسابعها) قوله ﴿ وفاكهة ﴾ وقد استدل بعضهم بأن الله تعالى لما ذكر الفاكهة معطوفة على العنب والزيتون والنخل وجب أن لا تدخل هذه الأشياء فى الفاكهة ، وهذا قريب من جهة الظاهر ، لأن المعطوف مغاير للمعطوف عليه .

(وثامنها) قوله تعالى ﴿ وأبا ﴾ والأب هو المرعى ، قال صاحب الكشاف لأنه يؤب أى يؤم وينتجع ، والأب والأم أخوان قال الشاعر :

جذمنا قيس ونجد دارنا ... لنا الأب به والمكرع

وقيل الأب الفاكهة اليابسة لأنها تؤدب للشتاء أى تعد ، ولما ذكر الله تعالى ما يغتذى به الناس والحيوان . قال ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ .

قال الفراء خلقناه منفعة ومتعة لكم ولأنعامكم ، وقال الزجاج هو منصوب لأنه مصدر مؤكد لقوله (فأنبتنا) لأن إنباته هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوان .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الأشياء وكان المقصود منها أمورا ثلاثة : (أولها) الدلائل الدالة على التوحيد (وثانيها) الدلائل الداله على القدرة على المعاد (وثالثها) أن هذا الإله الذى أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان ، لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعته وأن يتكبر على عبيده أتبع هذه الجملة بما يكون مؤكداً لهذه الأغراض وهو شرح أهوال القيامة ، فإن الإنسان إذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل فى الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الكفر ، ويدعوه ذلك أيضاً إلى ترك التكبر على الناس ، وإلى إظهار التواضع إلى كل أحد ، فلا جرم ذكر القيامة :

فقال ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ قال المفسرون يعنى صيحة القيامة وهى النفخة الأخيرة ، قال الزجاج أصل الصخ فى اللغة الطعن والصك ، يقال صخ رأسه بحجر أى شدخه والغراب يصخ بمنقاره فى دبر البعير أى يطعن ، فمعنى الصاخة الصاكة بشدة صوتها للآذان ، وذكر صاحب الكشاف وجهاً آخر فقال يقال صخ لحديثه مثل أصاخ له ، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً لأن الناس يصخون لها أى يستمعون .

ثم إنه تعالى وصف هول ذلك اليوم بقوله تعالى ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ﴾ وفيه مسألتان :

لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ يحتمل أن يكون المراد من الفرار مايشعر به ظاهره وهو التباعد والاحتراز والسبب فى ذلك الفرار الاحتراز عن المطالبة بالتبعات . يقول الأخ ما واسيتني بمالك ، والأبوان يقولان قصرت فى برنا ، والصاحبة تقول أطعمتني الحرام ، وفعلت وصنعت ، والبنون يقولون ماعلمتنا وما أرشدتنا ، وقيل أول من يفر من أخيه هابيل ، ومن أبويه إبراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ، ومن ابنه نوح ، ويحتمل أن يكون المراد من الفرار ليس هو التباعد ، بل المعنى أنه يوم يفر المرء من موالاة أخيه لاهتمامه بشأنه ، وهو كقوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وأما الفرار من نصرته ، وهو كقوله تعالى (يوم لايغنى مولى عن مولى شيئاً) وأما ترك السؤال وهو كقوله تعالى (ولا يسأل حميم حميما) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد أن الذين كان المرء فى دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم ، فإنه يفر منهم فى دار الآخرة ، ذكروا فى فائدة الترتيب كأنه قيل (يوم يفر المرء من أخيه) بل من أبويه فإنهما أقرب من الأخوين بل من الصاحبة والولد ، لأن تعلق القلب بهما اشد من تعلقه بالأبوين .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الفرار أتبعه بذكر سببه فقال تعالى ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ وفى قوله (يغنيه) وجهان (الأول) قال ابن قتيبة يغنيه أى يصرفه ويصده عن قرابته وأنشد :

سيغنيك حرب بنى مالك عن الفحش والجهل فى المحفل

أى سيشغلك ، ويقال أغن عنى وجهك أى أصرفه (الثانى) قال أهل المعانى يغنيه أى ذلك الهم الذى بسبب خاصة نفسه قد ملأ صدره ، فلم يبق فيه متسع لهم آخر ، فصارت شبيهاً بالغنى فى أنه حصل عنده من ذلك المملوك شىء كثير .

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال يوم القيامة فى الهول ، بين أن المكلفين فيه على قسمين منهم السعداء ، ومنهم الأشقياء فوصف السعداء بقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ﴾ مسفرة مضيئة متهللة ، من أسفر الصبح إذا أضاء ، وعن ابن عباس من قيام الليل لما روى من كثرت صلاته بالليل ، حسن وجهه بالنهار ، وعن الضحاك ، من آثار الوضوء ، وقيل من طول ما اغبرت فى سبيل الله ، وعندى أنه بسبب الخلاص من علائق الدنيا والاتصال بعالم القدس ومنازل الرضوان والرحمة ضاحكة ، قال الكلبي يعنى بالفراغ من الحساب مستبشرة فرحة بما نالت من كرامة الله ورضاه ، واعلم أن قوله مسفرة إشارة إلى الخلاص عن هذا العالم وتبعاته

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

وأما الضاحكة والمستبشره ، فهما محمولتان على القوة النظرية والعملية ، أو على وجدان المنفعة ووجدان التعظيم .

﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ قال المبرد الغبرة ما يصيب الإنسان من الغبار ، وقوله (ترهقها) أى تدركها عن قرب ، كقولك رهقت الجبل إذا لحقته بسرعة ، والرهق عجلة الهلاك ، والقترة سواد كالدخان ، ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه ، كما ترى وجوه الزنوج إذا اغبرت ، وكأن الله تعالى جمع فى وجوههم بين السواد والغبرة ، كما جمعوا بين الكفر والفجور ، والله أعلم .

واعلم أن المرجئة والخوارج تمسكوا بهذه الآية ، أما المرجئة فقالوا إن هذه الآية دلت على أن أهل القيامة قسمان : أهل الثواب ، وأهل العقاب ، ودلت على أن أهل العقاب هم الكفرة ، وثبت بالدليل أن الفساق من أهل الصلاة ليسوا بكفرة ، وإذا لم يكونوا من الكفرة كانوا من أهل الثواب ، وذلك يدل على أن صاحب الكبيرة من أهل الصلاة ليس له عقاب ، وأما الخوارج فإنهم قالوا دلت سائر الدلائل على أن صاحب الكبيرة يعاقب ، ودلت هذه الآية على أن كل من يعاقب فإنه كافر ، فيلزم أن كل مذنب فإنه كافر (والجواب) أكثر ما فى الباب أن المذكور ههنا هو هذا الفريقان ، وذلك لا يقتضى نفى الفريق الثالث ، والله أعلم ؛ والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبى وآله وصحبه أجمعين .



سورة عَبَس

مكية في قول الجميع، وهي إحدى وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾

فيه ستُّ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ أي: كَلَح بوَجْهِه؛ يقال: عَبَس وبَسَر. وقد تقدَّمَ[1]. ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أعرَضَ بوجهه ﴿أَن جَآءَهُ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ لأنه مفعولٌ له، المعنى: لأنْ جاءه الأعمى، أي: الذي لا يُبْصِرُ بعينيه. فروى أهلُ التفسيرِ أجمع: أنَّ قوماً من أشراف قريشٍ كانوا عند النبيِّ ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقْبَل عبد الله ابنُ أمِّ مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يَقطَع عبدُ الله عليه كلامه، فأعْرَضَ عنه، ففيه نزلت هذه الآية.

قال مالك: إنَّ هشام بنَ عُروة حدَّثه عن عروةَ أنه قال: نزلتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أمِّ مكتوم، جاء إلى النبيِّ ﷺ فجعل يقول: يا محمد اسْتَدْنِني، وعند النبيِّ ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل النبيُّ ﷺ يُعرِضُ عنه ويُقبِلُ على الآخَرِ، ويقول: «يا فلان، هل ترى بما أقولُ بأساً؟» فيقول: لا والدُّمَى، ما أرى بما تقولُ بأساً، فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[2].

---

(1) ٢١/ ٣٧٨.

(2) الموطأ ١/ ٢٠٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٣. ووقع في الموطأ: لا والدِّماء، قال ابن الأثير في النهاية (دما): لا والدماء، أي: دماء الذبائح. ويروى: لا والدُّمَى، جمع دمية وهي الصورة، ويريد بها الأصنام.

وفي الترمذيِّ مُسنَداً قال: حدَّثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأُمَويُّ، حدَّثني أبي، قال: هذا ما عَرَضنا على هشام بنِ عُروةَ عن أبيه عن عائشة، قالت: نَزلَتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أمِّ مكتومٍ الأعمى، أتى رسولَ الله ﷺ فجعل يقول: يا رسولَ الله أرشِدْني، وعندَ رسولِ الله ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل رسولُ الله ﷺ يُعرِضُ عنه، ويُقبِلُ على الآخَرِ، ويقول: «أترى بما أقولُ بأساً» فيقول: لا، ففي هذا نزلت. قال: هذا حديث غريب[1].

الثانية: الآيةُ عِتابٌ من الله لنبيِّه ﷺ في إعراضه وتَولِّيه عن عبد الله ابن أمِّ مكتومٍ. ويقال: عمرو بن أمِّ مكتومٍ، واسمُ أمِّ مكتومٍ عاتكةُ بنت [عبد الله بن عنكثة بن] عامر ابن مخزوم، وعمرو هذا: هو ابنُ قيس بنِ زائدة بن الأصمِّ، وهو ابنُ خالِ خديجةَ رضي الله عنها[2]. وكان قد تَشَاغَلَ عنه برجلٍ من عظماء المشركين؛ يقال: كان الوليد بنَ المغيرة. ابن العربيِّ[3]: قاله المالكيةُ من علمائنا، وهو يُكْنَى أبا عبد شمس.

وقال قتادةُ: هو أمية بنُ خلف. وعنه: أُبيّ بن خلف[4]. وقال مجاهدٌ: كانوا ثلاثةً: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأُبيّ بن خلف[5]. وقال عطاءٌ: عتبة بن ربيعة. سفيان الثوريُّ: كان النبيُّ ﷺ مع عمِّه العباس[6].

الزمخشريُّ[7]: كان عنده صناديدُ قريشٍ: عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، وأبو جهل بنُ هشام، والعباس بنُ عبد المطلّب، وأميةُ بن خَلف، والوليدُ بن المغيرة، يدعوهم إلى

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣١).

(٢) الاستيعاب ٨/ ٣٥١، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٣.

(٤) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ١٠٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٠٧ فلم يذكر أبي بن خلف، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ وفيه: عتبة بن ربيعة وأمية بن خلف.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٠٧.

(٧) في الكشاف ٤/ ٢١٧.

الإسلام. رَجاءَ أن يُسلم بإسلامهم غيرُهم.

قال ابن العربيِّ: أمَّا قولُ علمائنا: إنَّه الوليد بنُ المغيرة، وقال آخرون: إنه أميةُ ابن خلفٍ والعباسُ، وهذا كلُّه باطلٌ وجهلٌ من المفسِّرين الذين لم يتحقَّقوا الدِّينَ، ذلك أنَّ أميةَ والوليدَ كانا بمكةَ وابن أمِّ مكتومٍ كان بالمدينة، ما حَضَر معهما ولا حَضَرا معه، وكان موتُهما كافرين، أحدُهما قَبلَ الهجرةِ، والآخَرُ ببدرٍ، ولم يَقصِدْ قطُّ أميةُ المدينةَ، ولا حَضَر عندَه مُفرَداً، ولا مع أحدٍ[١].

الثالثة: أقبَلَ ابنُ أمِّ مكتومٍ والنبيُّ ﷺ مُشتغلٌ بمَن حَضَره من وجوه قريشٍ يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قَوِيَ طَمَعُه في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلامُ مَن وراءَهم مِن قومهم، فجاء ابنُ أمِّ مكتومٍ وهو أعمى فقال: يا رسولَ الله، علِّمْني ممَّا عَلَّمكَ الله، وجعل يناديه ويُكثِرُ النداءَ، ولا يدري أنه مشتغلٌ بغيره، حتى ظهرت الكراهةُ في وجه رسولِ الله ﷺ لقَطْعِه كلامَه، وقال في نفسه: يقولُ هؤلاء: إنَّما أتباعُه العُميانُ والسِّفْلةُ والعبيد، فعَبَس وأعرَضَ عنه، فنزلت الآية[٢]. قال الثَّوريُّ: فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابنَ مكتومٍ يبسُطُ له رداءَه ويقول: «مرحباً بمَن عاتَبني فيه ربِّي». ويقولُ: «هل مِن حاجةٍ»؟ واستخلفه على المدينة مرَّتين في غزوتين غَزَاهما[٣]. قال أنس: فرأيتُه يوَم القادسيةِ راكباً وعليه درعٌ ومعه رايةٌ سوداء[٤].

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٣-١٨٩٤ . وذكر أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٧ هذا الكلام عن القرطبي، ثم قال: والغلط من القرطبي كيف ينفي حضورَ ابن أمِّ مكتوم معهما (يعني أمية والوليد)، وهو وهمٌ منه، وكلهم من قريش، والسورة كلها مكية بالإجماع... وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الآية.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤٧٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٦ ، وأخرجه بنحوه عبد بن حميد عن مجاهد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢١٧، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٦ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٥٤ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٨ ، وأحمد (١٢٣٤٤)، والطبري ٢٤/ ١٠٤ ، وزاد أحمد في أوله: استخلف رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم مرتين على المدينة، ولقد رأيته...، وأخرجه أبو داود (٢٩٣١) بذكر الاستخلاف فقط.

الرابعة: قال علماؤنا: ما فَعَله ابنُ أمِّ مكتومٍ كان من سوءِ الأدبِ لو كان عالماً بأنَّ النبيَّ ﷺ مشغولٌ بغيره، وأنَّه يَرْجو إسلامَهم، ولكنَّ الله تبارك وتعالى عاتَبه حتى لا تَنكَسِرَ قلوبُ أهلِ الصُّفَّةِ، أو ليعلم أنَّ المؤمن الفقيرَ خيرٌ من الغنيِّ، وكان النظر إلى المؤمن أوْلَى، وإنْ كان فقيراً أصلحُ وأوْلَى من الأمرِ الآخَرِ، وهو الإقبالُ على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ الآية [الأنفال: ٦٧] على ما تقدَّم.

وقيل: إنَّما قَصَدَ النبيُّ ﷺ تأليفَ الرجلِ، ثقةً بما كان في قلبِ ابنِ أمِّ مكتومٍ من الإيمان؛ كما قال: «إنِّي لأُعطي[١] الرجلَ وغيرُه أحبُّ إليَّ منه، مخافةَ أن يَكُبَّه الله في النار على وجهه»[٢].

الخامسة: قال ابن زيد: إنَّما عبس النبيُّ ﷺ لابنِ أمِّ مكتومٍ وأعرَضَ عنه؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقودُه أنْ يكفَّه، فدفعه ابنُ أمِّ مكتومٍ، وأبَى إلَّا أنْ يكلِّم النبيَّ ﷺ حتى يعلِّمه[٣]. فكان في هذا نوعُ جفاءٍ منه، ومع هذا أنزل الله في حقِّه على نبيِّه ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بلفظِ الإخبار عن الغائب؛ تعظيماً له[٤]، ولم يَقُلْ: عَبَسْتَ وتَولَّيْتَ. ثم أقبلَ عليه بمواجهةِ الخطاب تأنيساً له فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: يُعلِمُكَ ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ يعني ابنَ أمِّ مكتوم ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ بما استدعى منكَ تعليمَه إياه من القرآن والدِّين، بأنْ يزدادَ طهارةً في دينه، وزوال ظلمةِ الجهلِ عنه.

وقيل: الضميرُ في «لعله» للكافر، يعني: إنَّك إذا طمعتَ في أنْ يتزكَّى بالإسلام، أو يذَّكَّرَ فتقرِّبه الذِّكرى إلى قبولِ الحقِّ، وما يُدْريكَ أنَّ ما طَمِعتَ فيه كائنٌ[٥].

---

(١) في (م): لأصل.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٥٢٢)، والبخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٣ .

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ١٠٥ .

(٤) في (د): تعليماً.

(٥) تفسير الرزاي ٣١/ ٥٦ .

وقرأ الحسن: «آن جاءه الأعمى» بالمدِّ على الاستفهام، فـ«أنْ» متعلِّقةٌ بفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ التقدير: أأن جاءه أعرَضَ عنه وتَولَّى؟ فيوقَفُ على هذه القراءةِ على «وتولَّى»[1]. ولا يوقفُ عليه على قراءة الخبر، وهي قراءةُ العامة.

السادسة: نظيرُ هذه الآيةِ في العتاب قولُه تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الآية: ٥٢] وكذلك قولُه في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية: ٢٨] وما كان مثلَه، والله أعلم.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتَّعِظ بما تقولُ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي: العِظَةُ. وقراءةُ العامَّةِ: «فتنفعُه» بضمِّ العين، عَطفاً على «يَزَّكَّى». وقرأ عاصم وابنُ أبي إسحاقَ وعيسى: «فتنَفَعَه» نصباً[2]. وهي قراءةُ السُّلَميِّ وزِرّ بنِ حُبَيش، على جواب لعلَّ؛ لأنه غيرُ مُوجَبٍ، كقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ ثم قال: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: كان ذا ثروةٍ وغِنًى ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تَعرَّضُ له، وتُصغِي لكلامه. والتَّصدِّي: الإصغاءُ؛ قال الراعي:

تَصَدَّى لِوضاحٍ كأنَّ جبينَه سِرَاجُ الدُّجَى تُجبَى إليه الأساوِرُ[3]

وأصلُه: تَتَصدَّدُ من الصَّدَد[4]، وهو ما استقبلك، وصار قُبالَتَك؛ يقال: داري

(١) المحتسب ٢/ ٣٥٢، وقال ابن جني: فكأنه قال: أَلِأنْ جاءه الأعمى كان ذلك منه. والقراءة في القراءات الشاذة ص١٦٨.

(٢) السبعة ص٦٧٢، والتيسير ص٢٢٠.

(٣) في (ي) و(م): يحني إليه الأساور، والمثبت من باقي النسخ. وروايته في ديوان الراعي ص١٠٩، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٦/ ٩٢:

تَصَدَّى لوضاح الجبين كأنه سراجُ الدُّجى تُجْبَى إليه السوائر

(٤) في (م). الصد، وفي (ظ) و(ي): الصدود، والمثبت من (د)، وهو موافق لما في تفسير الرازي ٣١/ ٥٦، والبحر ٨/ ٤٢٥، والدر المصون ١٠/ ٦٨٧.

صَدَدَ دارِه، أي: قُبالتَها، نُصِبَ على الظرف[١]. وقيل: من الصَّدَى وهو العطش. أي: تتعرَّض له كما يتعرَّض العطشانُ للماء، والمصَاداةُ: المعارَضة.

وقراءةُ العامَّةِ: «تَصَدَّى» بالتخفيف، على طَرْحِ التاء الثانية تخفيفاً. وقرأ نافعٌ وابنُ مُحيصنٍ بالتشديد على الإدغام[٢].

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي: لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن، إنَّما أنت رسولٌ، ما عليك إلَّا البلاغ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يطلبُ العلمَ لله ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي: يخافُ اللهَ ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي: تُعرِضُ عنه بوجهك وتَشتَغلُ بغيره. وأصلُه: تتلهَّى. يقال: لَهِيتُ عن الشيء ألهَى، أي: تَشاغَلتُ عنه. والتلهِّي: التغافل. ولَهِيتُ عنه وتَلَهَّيْتُ بمعنى.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ «كلَّا» كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ، أي: ما الأمرُ كما تفعلُ مع الفريقين، أي: لا تَفْعلْ بعدها مثلها: من إقبالك على الغنيِّ، وإعراضِكَ عن المؤمن الفقير، والذي جرى من النبيِّ ﷺ كان تَرْكَ الأولَى كما تقدَّم، ولو حُمِلَ على صغيرةٍ لم يَبْعُدْ؛ قاله القشيرُّي.

والوقفُ على «كلَّا» على هذا الوجهِ جائزٌ. ويجوز أن تقفَ على «تَلَهَّى»، ثم تبتدئ: «كَلَّا»، على معنى: حَقًّا.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: السورةُ، أو آياتُ القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: مَوعظةٌ وتَبصِرةٌ للخَلْق ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: اتَّعظ بالقرآن.

قال الجُرْجانيُّ: «إنها» أي: القرآن، والقرآنُ مذكَّر إلَّا أنه لمَّا جُعل القرآنُ

(١) الصحاح (صدد).

(٢) أي: «تصَّدَّى»، وقرأ بها من السبعة أيضاً ابن كثير. السبعة ص٦٧٢ ، والتيسير ص٢٢٠ .

تذكرةً، أخرجه على لفظِ التَّذكِرة، ولو ذَكَّره لجاز، كما قال تعالى في موضعٍ آخَر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ [المدثر: ٥٤]. ويدلُّ على أنَّه أرادَ القرآنَ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[١] أي: كان حافظاً له غيرَ ناسٍ، وذكَّر الضمير. لأنَّ التذكرة في معنى الذِّكرِ والوَعظِ. وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس في قوله تعالى: «فمن شاء ذَكَره» قال: مَن شاء الله تبارك وتعالى ألْهَمه[٢].

ثم أَخبر عن جَلَالته فقال: ﴿فِي صُحُفٖ﴾ جمعُ صحيفةٍ ﴿مُّكَرَّمَةٖ﴾ أي: عند الله، قاله السّدِّيّ. الطبريُّ: «مُكَرَّمةٍ» في الدِّين؛ لِمَا فيها من العلم والحِكَم. وقيل: «مُكَرمةٍ» لأنها نزل بها كرامُ الحفَظة[٣]. أو لأنَّها نازلةٌ من اللوح المحفوظ.

وقيل: «مكرمةٍ» لأنَّها نزلت من كريم؛ لأنَّ كرامةَ الكتابِ من كرامة صاحبِه[٤].

وقيل: المرادُ كُتُبُ الأنبياءِ، دليلُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ . صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩][٥].

﴿مَّرۡفُوعَةٖ﴾ رفيعة القَدرِ عند الله. وقيل: مرفوعة عنده تبارك وتعالى. وقيل: مرفوعة في السماء السابعة؛ قاله يحيى بن سلام. الطبريُّ: مرفوعة الذِّكْرِ والقَدْر. وقيل: مرفوعة عن الشُّبَه والتناقُض[٦].

﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾ قال الحسن: من كلِّ دَنَس. وقيل: مُصَانة[٧] عن أنْ ينالَها الكفَّار.

---

(١) تفسير الرازي ٣١/٥٩ .

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/٤٢٣ بلفظ: فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتَّعظ به.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/٢٠٣ ، ولم نقف على قول الطبري في تفسيره.

(٤) النكت والعيون ٦/٢٠٣ .

(٥) تفسير البغوي ٤/٤٤٧ .

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/٢٠٣-٢٠٤ ، ولم نقف على قول الطبري في تفسيره.

(٧) كذا في النسخ، والصواب: مصونة، يقال: صنت الشيء فهو مَصُون، ولا تقل: مُصَان. تهذيب اللغة ١٢/٢٤٢ ، والصحاح (صون)، واللسان (صون).

وهو معنى قولِ السُّدِّيّ. وعن الحسن أيضاً: مُطهَّرة من أن تنزل على المشركين[١].

وقيل: أي: القرآن أُثبت للملائكة في صحفٍ يقرؤونها، فهي مكرمةٌ مرفوعةٌ مطهَّرة.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ أي: الملائكة الذين جعلهم الله سُفراءَ بينه وبين رُسُله، فهم بَررةٌ لم يتدنَّسوا بمعصيةٍ. ورَوى أبو صالحٍ عن ابن عباس قال: هي مطهَّرةٌ تجعلُ التطهيرَ لمن حملها، «بأيدي سَفَرةٍ» قال: كَتَبَةٍ[٢]. وقاله مجاهدٌ أيضاً[٣].

وهم الملائكةُ الكرامُ الكاتبون لأعمالِ العبادِ في الأسفار، التي هي الكتبُ، واحدُهم: سافِرٌ، كقولك: كاتبٌ وكَتَبة. ويقال: سَفَرتُ، أي: كتبتُ، والكتاب: هو السِّفْر، وجَمْعُه أسفار. قال الزجَّاج[٤]: وإنَّما قيل للكِتَاب سِفرٌ ـ بكَسرِ السِّين ـ وللكاتب سافِر؛ لأنَّ معناه أنه يبيِّنُ الشيءَ ويوضِّحُه. يقال: أسفَر الصبح: إذا أضاء، وسفَرتِ المرأة: إنما كَشَفَت النقابَ عن وجهها. قال: ومنه سَفَرتُ بين القومِ أسفِرُ سِفارةً: أصلَحتُ بينهم. وقاله الفرَّاء، وأنشد:

فـمـا أدَعُ الـسِّـفـارةَ بـيـنَ قـومـي ... ولا أمـشـي بـغِـشٍّ إنْ مَـشَـيْـتُ[٥]

والسَّفير: الرسولُ والمُصْلِحُ بين القوم، والجمع: سُفَراء، مثل: فقيهٍ وفقهاء. ويقال للورَّاقين: سُفَراءُ، بلُغةِ العِبرانية.

وقال قتادة: السَّفَرة هنا هم القُرَّاء؛ لأنَّهم يقرؤون الأسفار. وعنه أيضاً كقولِ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/١٠٨ مختصراً بلفظ: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ قال: كتبة.

(٣) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٨٤.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٦، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠٩، ونسبه المرزباني في معجم الشعراء ص٢٨٥ لموسى بن جابر الحنفي اليمامي، وهو شاعر نصراني جاهلي يلقب: أُزَيْرِق اليمامة، ويعرف بابن ليلى.

ابن عباس[١].

وقال وهب بن مُنبِّه: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ هم أصحابُ النبيِّ ﷺ. قال ابن العربي[٢]: لقد كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ سَفَرةً، كِراماً بَرَرَةً، ولكنْ ليسوا بمُرادِينَ بهذه الآية، ولا قارَبوا المرادِينَ بها، بل هي لفظةٌ مخصوصةٌ بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشارِكُهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في مُتناولها غيرُهم. ورُوي في الصَّحيح عن عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «[مَثَلُ] الذي يقرأ القرآنَ وهو حافظٌ له، مع السَّفَرةِ الكرامِ البررة، ومَثَلُ الذي يقرؤه وهو يتَعاهدُه، وهو عليه شديدٌ، فله أجران» متفقٌ عليه، واللفظُ للبخاريّ[٣].

﴿كِرَامٍ﴾ أي: كرامٍ على ربِّهم؛ قاله الكلبيُّ. الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسَهم عنها[٤]. وروى الضحاك عن ابن عباس في «كِرام» قال: يتكرَّمون أن يكونوا مع ابنِ آدمَ إذا خلا بزوجته، أو تَبرَّز لغائطه[٥]. وقيل: أي: يُؤثِرون منافعَ غيرهم على منافع أنفسهم.

﴿بَرَرَةٍ﴾ جمعُ بارٍّ، مثل: كافرٍ وكَفَرة، وساحِرٍ وسَحَرة، وفاجِرٍ وفَجَرة؛ يقال: بَرٌّ وبارٌّ: إذا كان أهلاً للصِّدق، ومنه بَرَّ فلانٌ في يمينه، أي: صَدَق، وفلانٌ يَبرُّ خالقَه ويتبرَّرُه، أي: يطيعُه، فمعنى «بررةٍ» مطيعون لله، صادقون لله في أعمالِهم[٦]. وقد مضى في سورة الواقعة قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ . فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ . لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا

---

(١) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ١٠٨-١٠٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٤ ، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) صحيح البخاري (٤٩٣٧)، وصحيح مسلم (٧٩٨)، وسلف ١/ ١٤ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٠٤ .

(٥) ذكره الرازي ٣١/ ٥٨ عن عطاء قوله.

(٦) في (د): إيمانهم.

﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الآيات: ٧٧-٧٩] أنَّهم الكرامُ البرَرَةُ في هذه السورة(١).

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ «قتِل» أي: لُعِن. وقيل: عُذِّب. والإنسانُ: الكافر. روى الأعمشُ عن مجاهدٍ قال: ما كان في القرآن «قُتِل الإنسان» فإنَّما عُني به الكافر(٢).

وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس قال: نزلت في عُتبةَ بنِ أبي لَهَب، وكان قد آمن فلمَّا نزلتْ «والنجم» ارتدَّ، وقال: آمنت بالقرآن كلِّه إلَّا النجم، فأنزل الله جلَّ ثناؤه فيه ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾(٣) أي: لُعِنَ عُتبةُ، حيث كَفَر بالقرآن، ودعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهُمَّ سَلِّطْ عليه كَلْبكَ أسَدَ الغاضِرَة» فخرج من فَورِه بتجارةٍ إلى الشام، فلمَّا انتهى إلى الغاضرة تذكَّر دعاءَ النبيِّ ﷺ، فجعل لمَن معه ألفَ دينارٍ إنْ هو أصبح حيًّا، فجعلوه في وسط الرُّفقةِ، وجعلوا المتاعَ حوله، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد، فلمَّا دنا من الرِّحال وثب فإذا هو فوقه فمزَّقه، وقد كان أبوه نَدبه وبكى وقال: ما قال محمدٌ شيئاً قَطُّ إلَّا كان(٤).

---

(١) عند تفسير الآية (٧٩) في المسألة الخامسة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٠ .

(٣) أخرجه ابن المنذر عن عكرمة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٥ عن ابن جريج ومجاهد، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) سلف المرفوع منه في بداية تفسير سورة النجم بلفظ: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك». وكذا أخرجه أبو الفرج في الأغاني ١٦/ ١٧٦ عن عكرمة، ثم قال: فقال ابن عباس: فخرج إلى الشام في ركب فيهم هبار بن الأسود، حتى إذا كانوا بوادي الغاضرة، وهي مَسبَعة، نزلوا ليلاً...، وذكر الخبر.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: «ما أكْفَره»: أيُّ شيءٍ أكفَرَه[١]؟

وقيل: «ما» تعجُّبٌ؛ وعادةُ العربِ إذا تعجَّبوا من شيءٍ قالوا: قاتَلَه الله ما أحسَنه! وأخْزاه الله ما أظْلَمَه! والمعنى: اعجَبوا مِن كُفرِ الإنسانِ، لجميع ما ذَكَرنا بعد هذا[٢].

وقيل: ما أكْفَره بالله ونعمِه مع معرفتِه بكَثرةِ إحسانِه إليه، على التعجُّب أيضاً؛ قال ابنُ جُرَيج: أي: ما أشدَّ كُفرَه[٣]!

وقيل: «ما» استفهامٌ، أي: أيُّ شيءٍ دعاه إلى الكُفْر[٤]؛ فهو استفهامُ توبيخٍ. و«ما» تَحتَمِلُ التعجُّبَ، وتحتملُ معنى «أيّ» فتكونُ استفهاماً.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: مِن أيِّ شيءٍ خَلَقَ الله هذا الكافرَ فيتكبَّر؟ أي: اعجَبوا لخَلْقِه. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من ماءٍ يَسيرٍ مهين جَماد ﴿خَلَقَهُۥ﴾ فلمَ يغْلُظُ[٥] في نفسه؟! قال الحسن: كيف يتكبَّر مَن خرج من سبيل البولِ مرَّتين[٦].

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ في بَطْنِ أمِّه؛ كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس[٧]، أي: قدَّر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه[٨]، وحَسناً ودَميماً، وقصيراً وطويلاً، وشقيًّا وسعيداً.

وقيل: «فقدَّره» أي: فسوَّاه، كما قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ

(١) ذكره أبو الليث ٣/٤٤٨ عن الكلبي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/٢٠٥ عن السدي ويحيى ابن سلام.

(٢) النكت والعيون ٦/٢٠٥.

(٣) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/٣١٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/٤٤٨، وقد سلف هذا القول قريباً من رواية أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) في (م): يغلط.

(٦) ذكره عن الحسن الجصاص في أحكام القرآن ٣/٣٥٢، وأخرجه البيهقي في الشعب (٨٢١٠) عن الأحنف بن قيس ﷺ.

(٧) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة، كما في الدر المنثور ٦/٣١٦.

(٨) جمع إرْب، وهو العضو. اللسان (أرب).

ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]. وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ [الانفطار: ٧].

وقيل: فقدَّره أطواراً، أي: من حالٍ إلى حالٍ؛ نطفةً ثم علقةً، إلى أنْ تمَّ خَلقُه.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ قال ابن عباس في روايةِ عطاءٍ، وقتادةُ والسدِّيُّ ومقاتلٌ: يسَّره للخروجِ من بَطْنِ أمِّه[١].

مجاهدٌ: يسَّره لطريقِ الخيرِ والشرِّ، أي: بيَّن له ذلك، دليلُه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. وقاله الحسن وعطاء[٢]، وابنُ عباسٍ أيضاً في روايةِ أبي صالح عنه.

وعن مجاهدٍ أيضاً قال: سبيل الشَّقاءِ والسعادة[٣]. ابن زيد: سبيل الإسلام[٤].

وقال أبو بكر بن طاهرٍ: يَسَّر على كلِّ أحدٍ ما خَلَقه له، وقدَّره[٥] عليه؛ دليلُه قولُه عليه السلام: «اعْمَلوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»[٦].

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي: جَعَل له قبراً يُوَارَى فيه إكراماً له، ولم يَجعَله ممَّا يلْقَى على وَجْهِ الأرضِ تأكله الطيرُ والعَوافي، قاله الفرَّاء[٧].

وقال أبو عبيدةَ: «أقْبَره»: جَعل له قبراً، وأمَر أنْ يُقبَر. قال أبو عبيدة: ولمَّا قَتَل عمرُ بن هُبيرةَ صالحَ بن عبد الرحمن، قالت بنو تميم ودخلوا عليه: أَقْبِرنا صالحاً، فقال: دونكُموه. وقال: «أقْبَره» ولم يَقُلْ: قَبَره؛ لأنَّ القابِرَ هو الدَّافِنُ بيده، قال الأعشى:

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١١١-١١٢ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ١١٢-١١٣ عن مجاهد والحسن.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٨ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٣ .

(٥) في (د) و(ظ): وقدر.

(٦) أخرجه أحمد (٦٢١)، والبخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي ﷺ، وسلف ١٠/ ٤٢١ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٧ ، والعوافي مفردها: العافية والعافي، وهو كل طالب رزق من إنسان أو بهيمة أو طائر. النهاية (عفا).

لـو أسـنَـدَتْ مَـيْـتـاً إلـى نـحـرِهـا عـاشَ ولـم يُـنـقَـلْ إلـى قـابِـرِ[(١)]

يقال: قبرتُ الميتَ: إذا دفنته، وأقْبره الله: أي: صيَّره بحيث يُقْبَر، وجعل له قبراً؛ تقول العرب: بترتُ ذَنَب البعير، وأبترَه الله، وعَضَبْتُ قَرنَ الثورِ، وأعضَبه الله، وطَرَدتُ فلاناً، والله أطْرَدَه، أي: صيَّره طَريداً[(٢)].

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: أحياه بعدَ مَوْته. وقراءةُ العامَّة: «أنشرهُ» بالألف. وروى أبو حَيوةَ عن نافعٍ وشعيب بن أبي حمزة: «شاء نَشَره» بغير ألفٍ[(٣)]، لغتان فصيحتان بمعنى[(٤)]؛ يقال: أنشَر الله الميتَ ونَشَره؛ قال الأعشى:

حـتـى يـقـولَ الـنـاسُ مـمَّـا رأوْا يـا عَـجَـبـاً لـلـمـيِّـتِ الـنَّـاشِـرِ[(٥)]

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ قال مجاهدٌ وقتادةُ: «لَمَّا يقضِ»: لا يقضي أحدٌ ما أُمرِ به[(٦)]. وكان ابن عباس يقول: «لمَّا يَقْضِ ما أمَره»: لم يَفِ بالميثاق الذي أُخِذَ عليه في صُلْبِ آدم. ثم قيل: «كَلَّا» رَدْعٌ وزَجرٌ، أي: ليس الأمرُ كما يقول الكافر؛ فإنَّ الكافر إذا أُخبِرَ بالنُّشور وقال[(٧)]: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ربَّما يقول: قد قَضَيتُ ما أُمِرْتُ به. فقال: كلَّا لم يَقْضِ شيئاً،

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٦ ، والبيت في ديوان الأعشى ١٨٩ . وعمر بن هبيرة هو أبو المثنى الفزاري الشامي، أمير العراقين، توفي سنة (١٠٧هـ). السير ٤/ ٥٦٢ . وصالح بن عبد الرحمن هو كاتب الحجاج، وهو الذي نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية، وكان يرى رأي الخوارج، ويقال: إن الذي قتله هو الحجاج. ينظر ما سلف ١/ ٣٥١ ، وغريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٢٨١ ، والكامل للمبرد ٢/ ٧٢٩ ، وجمهرة اللغة ١/ ٢٧١ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٧ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥٣ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩ ، والبحر ٨/ ٤٢٩ . وشعيب بن أبي حمزة هو أبو بشر الأموي مولاهم الحمصي الكاتب، واسم أبيه دينار. توفي سنة (١٦٢هـ). السير ٧/ ١٨٧ .

(٤) وقال ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٣ : «أنشر» أقوى اللغتين.

(٥) ديوان الأعشى ص١٩١ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٤ عن مجاهد بلفظ: لا يقضي أحد أبداً ما افتُرِض عليه.

(٧) في (د) و(م): قال.

بل هو كافرٌ بي وبرسولي.

وقال الحسن: أي: حَقّاً لم يَقْضِ[١]، أي: لم يَعمَلْ بما أُمِرَ به. و«ما» في قوله: «لمَّا» عمادٌ للكلام[٢]؛ كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩] وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون:٤٠].

وقال الإمامُ ابن فُورَك: أي: كلَّا لَمَّا يَقْضِ الله لهذا الكافرِ ما أمره به من الإيمان، بل أمرَه بما لم يَقضِ له [به][٣].

ابن الأنباريّ: الوَقفُ على «كلَّا» قبيح، والوقفُ على «أمره» و«أنشره» جيد[٤]؛ فـ«كلَّا» على هذا بمعنى حقًّا.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ لمَّا ذَكَر جلَّ ثناؤه ابتداءَ خَلْقِ الإنسانِ، ذَكَر ما يسَّر مِن رِزقه، أي: فَلينظرْ كيف خَلَق الله طعامَه. وهذا النظرُ نظرُ القلبِ بالفكر، أي: ليتَدَبَّرْ كيف خَلَق الله طعامَه الذي هو قِوَامُ حياتِه، وكيف هَيَّأ له أسبابَ المعاش، ليستعدَّ بها للمعاد. ورُوي عن الحسن ومجاهدٍ قالا: «فَلينظرِ الإنسان إلى طعامِهِ» أي: إلى مدخله ومخرجه[٥].

وروى ابن أبي خَيثمةَ عن الضحَّاك بن سفيان الكلابيِّ قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «يا ضحاكُ، ما طعامُك؟» قلت: يا رسولَ الله! اللَّحمُ واللَّبن. قال: «ثم يصيرُ إلى ماذا؟»

(١) تفسير البغوي ٤/٤٤٨، وزاد المسير ٩/٣٢.

(٢) يعني صلة.

(٣) تفسير الرازي ٣١/٦١، وما بين حاصرتين منه.

(٤) بنحوه في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٩٦٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/٤٤٨ عن مجاهد، وأخرجه عنه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/٣١٦.

قلتُ: إلى ما قد عَلِمتَه؛ قال: «فإنَّ الله ضَرَبَ ما يَخرجُ من ابنِ آدمَ مثلاً للدنيا»[١].
وقال أبيّ بن كعب: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ مَطْعَم ابن آدمَ جُعِل مَثَلاً للدنيا، وإنْ قَزَحَه ومَلَحه، فانظرْ إلى ما يصير»[٢].

وقال أبو الوليد: سألتُ ابنَ عمر عن الرجل يدخلُ الخَلاءَ فينظر ما يخرجُ منه؛ قال: يأتيه الملكُ فيقولُ: انْظُر ما بَخِلتَ به إلى ما صار[٣]؟

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ قراءةُ العامَّة: «إنَّا» بالكسر، على الاستئناف. وقرأ الكوفيون ورُوَيس عن يعقوب: «أنَّا» بفتح الهمزة[٤]، فـ«أنَّا» في موضعِ خَفْضٍ على الترجمة عن الطعام، فهو بدَلٌ منه، كأنه قال: فلينظُرِ الإنسانُ إلى طعامِهِ، إلى أنَّا صَبَبنا. فلا يَحسُنُ الوقفُ على «طعامِهِ» من[٥] هذه القراءة، وكذلك إنْ رَفَعتَ «أنَّ»[٦] بإضمارٍ: هو أنَّا صببنا؛ لأنَّها في حالِ رَفعِها مُترجمةٌ عن الطعام. وقيل: المعنى: لأنَّا صَببنا الماءَ، فأخْرَجْنا به الطعامَ، أي: كذلك[٧] كان.

وقرأ الحسين بن علي: «أنّى» ممال، بمعنى كيف[٨]؟ فَمن أخذَ بهذه القراءة قال:

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٤٧).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على مسند أحمد (٢١٢٣٩)، قال السندي كما في حاشية المسند: قَزَحَه، أي: أصلحه بالأبزار (يعني حبوب التوابل)، و«إن» وصلية، أي: انظروا إلى ما يصير إليه وإن أصلحه. و«مَلَحه» بالتخفيف، يقال: مَلحت القدر: إذا طرحت فيها من الملح بقدر، وأملحتها وملَّحتها بالتشديد: إذا كثَّرت فيها الملح حتى فسدت.

(٣) ذكره بنحوه عن ابن عمر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩، وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي قلابة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٦.

(٤) السبعة ص٦٧٢، والتيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨.

(٥) في (ظ): على، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٧، والكلام منه.

(٦) في (م): أنا، وليست في (ظ)، والمثبت من باقي النسخ وإيضاح الوقف والابتداء.

(٧) في (ظ): لذلك.

(٨) الكشاف ٤/ ٢١٩، والبحر ٨/ ٤٢٩، ووقع في النسخ الخطية: الحسن بن علي، وهو موافق لما في الدر المصون ١٠/ ٦٩٢، وفتح القدير ٥/ ٣٨٥، وذكر القراءة ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٧، وفيه: وقرأ بعض القراء...

الوقفُ على «طعامه» تامٌّ. ويقال: معنى «أنّى»: أين، إلَّا أنَّ فيها كنايةً عن الوجوه، وتأويلُها: من أيِّ وجهٍ صببنا الماء؛ قال الكُميت:

أنَّى ومِن أينَ آبَكَ الطَّرَبُ مِن حيثُ لا صَبوةٌ ولا رِيَبُ[1]

﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾: يعني الغيثَ والأمطارَ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾: أي: بالنبات ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي: قمحاً وشعيراً وسُلْتاً، وسائرَ ما يُحصَدُ ويدَّخر ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وهو القَتُّ والعَلَف؛ عن الحسن[2]. سمِّي بذلك لأنه يقضب، أي: يُقْطَعُ بعد ظهورِه مرَّةً بعد مرةٍ. قاله القُتبيُّ وثعلب[3]. وأهلُ مكةَ يسمُّون القَتَّ: القَضْب[4].

وقال ابن عباس: هو الرُّطَبُ؛ لأنه يُقضَبُ من النخل، ولأنه ذَكَر العِنَبَ قبلَه. وعنه أيضاً: أنه الفِصفِصةُ[5]، وهو القَتُّ الرَّطْبُ.

وقال الخليل: القَضبُ: الفِصْفِصةُ الرَّطْبةُ ـ وقيل: بالسِّين ـ فإذا يبسَتْ فهو قَتٌّ. قال: والقَضْبُ اسمٌ يقع على ما يُقضَبُ من أغصان الشجرة، ليتَّخذَ منها سِهامٌ أو قِسيٌّ[6].

ويقال: قَضْباً، يعني جميعَ ما يُقضَبُ، مثل القَتِّ والكُرَّاثِ وسائر البقول التي تُقطَع فينبتُ أصلُها.

---

(١) شرح هاشميات الكميت ص١٠٠، وإيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٧ ، والكلام منه. قال أبو رياش القيسي شارح الهاشميات: آبك: أتاك ليلاً، والطَّرَب: الخفَّة من حزن ومن فرح جميعاً. يقول: إنما طربُك إلى بني هاشم لا صبوةٌ في صبا، ولا رِيب، أي: لا ريبة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٦ دون قوله: القت. والقَتُّ: الفِصْفِصة، وهي نبات كالبرسيم. المعجم الوسيط (قت) و(رطب). وفي النهاية (فصفص): الفِصْفِصة: هي الرَّطبةُ من علف الدوابّ، وتسمى: القت، فإذا جفَّ فهو قَضب. ويقال: فِسْفِسة بالسين.

(٣) تفسير الغريب لابن قتيبة ص٥١٤ ، وذكره عن ثعلب ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩ ، وهو بنحوه في مجالس ثعلب ص٢٢٩، ووقع في النسخ: قال، بدل: قاله.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٨ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ١١٦ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٦ ، ولم نقف على الذي قبله.

(٦) بنحوه في العين ٥/ ٥٢-٥٣ .

وفي «الصحاح»: والقَضبةُ والقَضبُ الرَّطْبةُ، وهي الإسْفِسْتُ بالفارسية، والموضع الذي تَنْبُتُ فيه: مَقضَبة[١].

﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهي شجرةُ الزيتونِ ﴿وَنَخْلًا﴾ يعني النخيل ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين، واحدُها حديقة. قال الكلبيُّ: وكلُّ شيءٍ أُحيطَ عليه من نخيلٍ أو شجرٍ فهو حديقةٌ، وما لم يُحَطْ عليه فليس بحديقة[٢].

﴿غُلْبًا﴾ عِظاماً شجرُها؛ يقال: شجرةٌ غَلباءُ، ويقال للأسد: الأغلَب؛ لأنه مُصمَتُ العنقِ، لا يَلتفتُ إلّا جميعاً؛ قال العجّاج:

مازِلتُ يومَ البَينِ ألوِي صَلَبي والرأسَ حتى صِرتُ مِثلَ الأغلَبِ[٣]

ورجلٌ أغلبُ بيِّنُ الغَلبِ: إذا كان غليظَ الرقبة. والأصلُ في الوصف بالغلب: الرقاب، فاستُعير. قال عمرو بن مَعْدِي كَرِب:

يَمشي بها غُلبُ الرقابِ كأنهم بُزُلٌ كُسِينَ من الكُحَيلِ جِلَالا[٤]

وحديقةٌ غَلبَاءُ: ملتفَّةٌ، وحدائقُ غُلبٌ. واغلَوْلَبَ العشبُ: بلغ والتَفَّ البعضُ بالبعض. قال ابن عباس: الغُلْب: جمع أغلَبَ وغَلباءَ، وهي الغِلاظ[٥]. وعنه أيضاً: الطِّوَال. قتادةُ وابنُ زيد: الغُلْبُ: النخلُ الكِرام. وعن ابن زيد أيضاً وعِكرمةُ: عِظَامُ الأوساطِ والجُذوع. مجاهد: ملتفَّة[٦].

---

(١) الصحاح (قضب). والرَّطبة: الفِصْفِصة، وكلُّ ما أكل من البنات غضًّا طريًّا. المعجم الوسيط (رطب).

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٤٩ .

(٣) ذكره ابن دريد في الجمهرة ١/ ٢٩٨ و٣١٨ عن الأغلب العجلي، وقال: الصَّلَب: الصُّلْب، لغة تميمية. ولم نقف عليه في ديوان العجاج.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٢٠ . البُزُل: جمع بَزول، وهو البعير طلع نابه وذلك في السنة الثامنة أو التاسعة. المعجم الوسيط (بزل). والجِلال جمع جلٌّ (بضم الجيم وبفتحها) وهو ما تُلْبَسه الدابة لتصان به. والكُحيل كزبير: النفط أو القطران تُطْلى به الإبل. القاموس (جلل) و(كحل).

(٥) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٦ ، ولفظه: الغلب: ما غلظ.

(٦) تنظر هذه الأخبار في تفسير الطبري ٢٤/ ١١٧-١١٩ .

﴿وَفَٰكِهَةً﴾ أي: ما تأكلُه الناسُ من ثمار الأشجار، كالتين والخَوخِ وغيرِهما ﴿وَأَبًّا﴾ هو ما تأكلُه البهائم من العُشب؛ قال ابن عباس والحسن: الأبُّ: كلُّ ما أنبتَت الأرضُ، ممَّا لا يأكلُه الناس[١]، وما يأكلُه الآدميون هو الحَصيدة، ومنه قولُ الشاعر في مَدحِ النبيِّ ﷺ:

لـه دَعـوةٌ مَـيـمـونـةٌ رِيـحُـهـا الـصَّـبـا بـهـا يُـنـبِـتُ الله الـحـصِـيـدةَ والأبَّـا[٢]

وقيل: إنَّما سمّي أبًّا؛ لأنَّه يُؤَبُّ، أي: يُؤَمُّ ويُنتجَعُ. والأبُّ والأمُّ أخَوان؛ قال:

جِـذمُـنـا قـيـسٌ ونَـجْـدٌ دارُنـا ولـنـا الأبُّ بـه والـمـكْـرَعُ[٣]

وقال الضحَّاك: الأبُّ: كلُّ شيءٍ يَنْبتُ على وَجْهِ الأرضُ[٤]. وكذا قال أبو رَزين: هو النبات. يدلُّ عليه قولُ ابنِ عباس قال: الأبُّ: ما تُنبتُ الأرضُ ممّا يأكلُ الناسُ والأنعام[٥].

وعن ابن عباسٍ أيضاً وابنِ أبي طلحةَ: الأبُّ: الثمارُ الرَّطبة[٦].

وقال الضحاك: هو التِّبنُ خاصةً. وهو مَحْكيٌّ عن ابن عباس أيضاً[٧]؛ قال الشاعر:

فـمـا لَـهُـمْ مَـرْتَـعٌ لِـلـسَّـوَا مِ والأبُّ عـنـدَهُـمُ يُـقْـدَرُ[٨]

---

(١) أخرجه عن ابن عباس ابن خزيمة (٢١٧٢) ـ (٢١٧٤)، والطبري ٢٤/ ١٢١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ ، ونسبه صاحب كتاب الوافي بالوفيات ١١/ ٣٣٢ لحرب بن رَيْطة.

(٣) جمهرة اللغة ١/ ١٣ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٥٩٩ ، والكشاف ٤/ ٢٢٠ ، والكلام منه. قوله: جِذْمنا، الجذْم بالكسر: الأصل، القاموس (جذم). وقال ابن دريد: المكرع: الذي تكرع فيه الماشية، مثل ماء السماء، ، يقال: كرع في الماء: إذا غابت فيه أكارعه.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٥) أخرج قول أبي رزين وقول ابن عباس الطبري ٢٤/ ١٢١ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ١٢٣ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩ عن الضحاك، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٨ عن ابن عباس، وأخرجه عن الضحاك عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٧ . ووقع في النسخ: التين، والمثبت عن المصادر.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ ، والسَّوام: الإبل الراعية. القاموس (سوم).

الكلبيُّ: هو كلُّ نباتٍ سوى الفاكهةِ. وقيل: الفاكهةُ: رَطْبُ الثمارِ، والأبُّ يابِسُها[1].

وقال إبراهيمُ التَّيميُّ: سُئل أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ عن تفسير الفاكهةِ والأبِّ، فقال: أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني، إذا قلتُ في كتابِ اللهِ ما لا أعلَم[2].

وقال أنس: سمعتُ عمر بنَ الخطاب ﷺ قرأ هذه الآية ثم قال: كلٌّ هذا قد عَرفناه، فما الأبُّ؟ ثم رفع عصاً كانت بيده وقال: هذا لعَمرُ الله التكلُّفُ، وما عليك يا ابنَ أمِّ عمرَ ألَّا تَدري ما الأبُّ؟ ثم قال: اتَّبِعوا ما تَبيَّن[3] لكم من هذا الكتابِ، وما لَا فَدَعوه[4].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «خُلِقتُم من سَبْعٍ، و رزُقتُم من سبعٍ، فاسْجُدوا لله على سبعٍ». وإنَّما أراد بقوله: «خُلقتُم من سبع» يعني: ﴿مِن نُّطْفَةٍ . ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ . ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ الآية [الحج: ٥]، والرزقُ من سَبعٍ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾[5]، ثم قال: «وأبًّا»، وهو يدلُّ على أنه ليس برزقٍ لابنِ آدم، وأنَّه مما تَختصُّ به البهائم. والله أعلم.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾ نصب على المصدر المؤكِّد؛ لأنَّ إنباتَ هذه الأشياءِ إمتاعٌ لجميعِ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧، وهو منقطع بين إبراهيم التيمي وأبي بكر رضي الله عنهما. وروي كذلك عن طريق إبراهيم النخعي عن أبي بكر، وهو أيضاً منقطع كما ذكر الحافظ في الفتح ١٣/ ٢٦٥، وقال: لكن أحدهما يقوي الآخر.

(٣) في النسخ عدا (ظ): بين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للكشاف ٤/ ٢٢٠، والكلام منه.

(٤) أخرجه ابن سعد ٣/ ٣٢٧، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧، وسعيد بن منصور في سننه (٤٣ ـ تفسير)، والطبري ٢٤/ ١٢٠ و١٢٣، ونقله المصنف عن الكشاف ٤/ ٢٢٠. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكلُّ مَن قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٤٩، ولم نقف عليه مسنداً.

الحيوانات. وهذا ضربُ مَثَلٍ؛ ضرَبَه الله تعالى لبَعْثِ الموتى من قبورهم، كنباتِ الزرعِ بعد دُثُوره[١]، كما تقدَّم بيانُه في غيرِ موضعٍ. ويتضمَّنُ امتناناً عليهم بما أنْعَم به وقد مضى في غيرِ موضعٍ أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ لمَّا ذَكَر أمرَ المعاشِ أمرَ ذكَر المَعادِ، ليتزوَّدوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق ممَّا امتَنَّ به عليهم. والصَّاخَّةُ: الصيحةُ التي تكون عنها القيامةُ، وهي النفخةُ الثانية، تَصُخُّ الأسماعَ: أي: تُصِمُّها فلا تَسْمَعُ إلَّا ما يُدعَى به للإحياء.

وذكر ناسٌ من المفسرين قالوا: تُصِيخُ لها الأسماعُ، مِن قولك: أصاخَ إلى كذا، أي: اسْتَمَعَ إليه، ومنه الحديثُ: «ما من دابَّةٍ إلَّا وهي مُصيخةٌ يومَ الجمعةِ شَفَقًا من الساعةِ، إلَّا الجنَّ والإنس»[٢]. وقال الشاعر:

يُصِيخُ للنَّبْأةِ أسماعَهُ ... إصاخةَ الناشِدِ للمُنشِدِ[٣]

قال بعضُ العلماءِ: وهذا يؤخَذُ على جهةِ التسليم للقُدَماء، فأمَّا اللغةُ فمقتضاها القولُ الأولُ؛ قال الخليل: الصاخَّة: صيحةٌ تَصُخُّ الآذانَ صَخًّا، أي: تُصِمُّها بشدةِ

---

(١) النكت والعيون ٦/٢٠٨ .

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه مالك في الموطأ ١/١٠٨ ، وأحمد (١٠٣٠٣)، وأبو داود (١٠٤٦)، والنسائي في المجتبى ٣/١١٣-١١٥ عن أبي هريرة ﷺ. ووقع عند أحمد وأبي داود: مُسيخة، بدل: مصيخة. قال الخطابي في معالم السنن ١/٢٤٢ : يقال: أصاخ وأساخ، بمعنى واحد.

(٣) النكت والعيون ٦/٢٠٩ ، ووقع في (م): إصاخة المنشد للمنشد. والنَّبْأة: الصوت الخفي. القاموس (نبأ).

وَقعَتها[(١)]. وأصلُ الكلمةِ في اللغة: الصَّكُّ الشديد. وقيل: هي مأخوذةٌ من صخَّه بالحجر: إذا صَكَّه، قال الراجز:

يا جارتي هل لكِ أنْ تجالدي جلادةً كالصَّكِّ بالجَلامِدِ[(٢)]

ومن هذا البابِ قولُ العربِ: صَخَّتْهم الصاخَّةُ وباقَتْهم البائقة[(٣)]، وهي الداهية. الطبريُّ: وأحسبُه من صَخَّ فلانٌ فلاناً: إذا أصْماه[(٤)].

قال ابن العربيّ: الصاخَّة التي تُورِثُ الصمَمَ، وإنَّها لمُسمِعةٌ، وهذا من بديع الفصاحة، حتى لقد قال بعضُ حَديثي الأسنان حديثي الأزمان:

أصَمَّ بِكَ الناعي وإنْ كان أسمَعا[(٥)]

وقال آخر:

أصَمَّني سِرُّهم أيامَ فُرقتهم فهل سمِعتُم بسِرٍّ يُورِثُ الصَّمَما[(٦)]

لعَمْرُ الله إنَّ صيحةَ القيامةِ لمسمِعةٌ تُصِمُّ عن الدنيا، وتُسمِعُ أمورَ الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ أي: يهربُ، أي: تَجيءُ الصاخَّة في هذا اليومِ الذي يهربُ فيه من أخيه، أي: من مُوَالاةِ أخيه ومُكالمَتهِ؛ لأنه لا يتفرَّغُ لذلك لاشتغاله بنفسه، كما قال بعده: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: يَشْغَلُه عن غيره.

وقيل: إنَّما يفرُّ حذراً من مطالبتهم إياه بمَا[(٧)] بينهم من التَّبِعات. وقيل: لئلَّا يَرَوْا

(١) العين ٤/ ١٣٥ ، ووقع في (ظ): بشدة وقعها.

(٢) لم نقف عليه. قوله: بالجلامد، جمع جَلْمد، وهو الصخر. والصك: الضرب الشديد بالشيء العريض. اللسان (جلمد) و(صك).

(٣) في النسخ عدا (ظ): وباتتهم الباتتة، والمثبت من (ظ). وفي البحر ٨/ ٤٢٩ : ونابتهم النائبة.

(٤) كذا ذكر المصنف، والذي في تفسير الطبري ٢٤/ ١٢٤ : وأحسبها مأخوذة من قولهم: صاخ فلان لصوت فلان: إذا استمع له.

(٥) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٤/ ٩٩ ، وعجزه: وأصبح مَغْنَى الجودِ بعدكَ بَلقَعا.

(٦) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٣/ ١٦٦ برواية... هل كنت تعرف سرًّا يورث الصمما.

(٧) في (د) و (م): لما.

ما هو فيه من الشدَّة. وقيل: لعِلْمِه أنَّهم لا ينفعونه ولا يُغْنونَ عنه شيئاً، كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ [الدخان: ٤١].

وقال عبد الله بنُ طاهرٍ الأبهَريُّ: يَفِرُّ منهم لِمَا تبيَّنَ له من عَجزِهم وقلَّةِ حيلتهم، إلى مَن يملكُ كَشفَ تلك الكُروبِ والهمومِ عنه، ولو ظَهَر له ذلك في الدنيا لَمَا اعتَمَدَ شيئاً سوى ربِّه تعالى.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته. ﴿وَبَنِيهِ﴾ أي: أولاده.

وذكر الضحَّاك عن ابن عباس قال: يفرُّ قابيلُ من أخيه هابيلَ، ويفرُّ النبيُّ ﷺ من أمِّه، وإبراهيمُ عليه السلام من أبيه، ونوحٌ عليه السلام من ابنه، ولوطٌ من امرأته، وآدمُ من سَوأةِ بنيه[١].

وقال الحسن: أولُ مَن يفرُّ يومَ القيامةِ من أبيه: إبراهيمُ، وأولُ مَن يفرُّ من ابنه نوحٌ، ،أولُ مَن يفرُّ من امرأته لوطٌ. قال: فيرَوْنَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت فيهم[٢] وهذا فرارُ التبرُّؤ.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. في «صحيح» مسلم عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرلاً» قلتُ: يا رسولَ الله! الرجالُ والنساءُ جميعاً ينظُر بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشدُّ مِن أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ»[٣].

خرَّجه التِّرمذيُّ عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تُحشَرون حُفاةً عُراةً غُرْلاً» فقالت امرأةٌ: أينْظُرُ بعضُنا ـ أو يرى بعضُنا ـ عورة بعض؟ قال: «يا فلانة، لكلِّ امرِئ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٤١ عن قتادة دون قوله: وآدم من سوأة بنيه. ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن عساكر ٦٤/ ٨ .

(٣) صحيح مسلم (٢٨٥٩)، وسلف ١٣/ ٢٩٧ . قوله: غرلاً، الغُرْل جمع الأغرل، وهو الأقلف. النهاية (غرل).

مِنهم يومئذٍ شأنٌ يُغنِيهِ». قال: حديثٌ حسنٌ صحيح[١].

وقراءةُ العامَّة بالغَيْنِ المعجَمة، أي: حالٌ يشغَله عن الأقرباء. وقرأ ابنُ مُحيصنٍ وحُميدٌ: «يَعنِيهِ» بفتح الياءِ، وعين غير معجَمة[٢]، أي: يَعْنيه أمره.

وقال القُتَبيُّ: يُغْنيه[٣]: يَصْرِفُه ويصُدُّه عن قرابته، ومنه يقال: أغنِ عنِّي وجهك، أي: اصرِفْه، وأغنِ عنِّي السَّفيه[٤]؛ قال خُفاف:

سَيُغْنِيك[٥] حربُ بني مالكٍ عن الفُحْشِ والجهلِ في المحْفلِ

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾: أي: مُشرقةٌ مضيئة، قد عَلمتْ مالَها من الفوز والنعيم، وهي وجوهُ المؤمنين. ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ أي: مسرورة فَرِحة ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: بما آتاها الله من الكرامة.

وقال عطاءٌ الخُراسانيُّ: «مُسْفِرة» من طولِ ما اغبرَّتْ في سبيل الله جلَّ ثناؤه. ذكَره أبو نعيم[٦].

الضحَّاك: مِن آثارِ الوضوء. ابنُ عباس: من قيام الليلِ؛ لمَا رُوي في الحديث: «مَن كَثُرتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهُه بالنهار»[٧] يقال: أسْفَر الصُّبحُ: إذا أضاء.

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٢).

(٢) المحتسب ٢/ ٣٥٣ عن ابن محيصن.

(٣) في (د) و(م) و(ي): يعنيه، والمثبت من (ظ)، وانظر التعليق الذي بعده.

(٤) في (ظ) و(م) و(ي): اعن عني وجهك . . . واعن عن السفيه، وكذلك وقع في مطبوع تفسير الغريب لابن قتيبة ص٥١٥ ، والمثبت من (د)، وهو موافق لما نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٣٥ عن ابن قتيبة، وينظر تفسير الرازي ٣١/ ٦٤ ، واللباب ٢٠/ ١٧١ ، وفتح القدير ٥/ ٣٨٥ ، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٠٢ .

(٥) في (م) و(ي): سيعنيك، ولم تجود في (ظ)، والمثبت من (د) وتفسير الرازي ٣١/ ٦٤ ، والبيت فيه دون نسبة.

(٦) في الحلية ٥/ ٢٠٠ .

(٧) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٣)، وابن الجوزي في الموضوعات (٧٩١-٧٩٦) عن جابر ﷺ وأخرجه ابن الجوزي أيضاً (٧٩٧) عن أنس ﷺ، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وسلف ١٦/ ٢٩٣ . والكلام من الكشاف ٤/ ٢٢٠ .

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: غبارٌ ودُخانٌ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تَغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي: كسوفٌ وسواد. كذا قال ابن عباس[1]. وعنه أيضاً: ذِلَّةٌ وشِدَّة[2]. والقتَر في كلام العرب: الغبار، جمع القَتَرة، عن أبي عُبيدة[3]؛ وأنشد الفرزدقُ:

مُتَوَّجٌ بِرداءِ المُلْكِ يَتْبعُه مَوجٌ ترى فوقَه الراياتِ والقَتَرا[4]

وفي الخبر: إنَّ البهائم إذا صارت تراباً يومَ القيامة، حُوِّلَ ذلك الترابُ في وجوه الكفار[5].

وقال زيد بن أسلم: القَتَرةُ: ما ارتفعتْ إلى السماء، والغَبَرة: ما انحطَّتْ إلى الأرض، والغبارُ والغَبَرَةُ واحدٌ[6].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ جمعُ كافرٍ ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ جمعُ فاجِرٍ، وهو الكاذبُ المفتري على الله تعالى. وقيل: الفاسق؛ فَجَر فُجوراً، أي: فَسَق. وفَجَر، أي: كذب. وأصلُه: الميل، والفاجِرُ: المائل. وقد مضى بيانُه والكلامُ فيه[7]. والحمد لله وحده.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٧ ، ولفظه: «قترة»، قال: سواد الوجوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٧ ، دون قوله: وشدة.

(٣) في (د) و(م): عبيد، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح (قتر)، والكلام منه، وكذا في اللسان (قتر).

(٤) الصحاح (قتر)، والبيت في ديوان الفرزدق ١/ ٢٣٤ ، برواية: مُعْتَصِبٌ برداء الملك...

(٥) ذكره الطبري ٢٤/ ١٢٧ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٧ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٧) ٢١/ ٤٠٩ .

تفسير سورة عبس

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ .

ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش ، وقد طَمع فى إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم ــ وكان ممن أسلم قديما ــ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه ، ووَدّ النبى ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل ؛ طمعا ورغبة فى هدايته . وعَبَس فى وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ ؟ أى : يحصل له زكاة وطهارة فى نفسه ، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى : يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم ، ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ أى : أما الغنى فأنت تتعرض له لعله يهتدى ، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴾ ؟ أى : ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة . ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ أى : يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له ، ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أى : تتشاغل . ومن هاهنا أمر الله عز وجل رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار . ثم الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

قال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا محمد ــ هو ابن مهدى ــ حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة [عن أنس][1] فى قوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ، جاء ابن أم مكتوم إلى النبى ﷺ وهو يكلم أبى بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ ، فكان النبى ﷺ بعد ذلك يكرمه .

قال قتادة : وأخبرنى أنس بن مالك قال : رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء ــ

(١) تنبيه : ما بين المعقوفين ليس فى أصل مسند أبى يعلى وتفسير عبد الرزاق . وهو من النسخ ،وأظنه مقحماً . والله أعلم .

يعنى ابن أم مكتوم [١] .

وقال أبو يعلي وابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى الأموى ، حدثنى أبى ،عن هشام بن عروة مما عرضه عليه عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : أنزلت : ﴿ عَبَسَ وَتولَّى ﴾ فى ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى . قالت : وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين. قالت : فجعل النبى ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : « أترى بما أقول بأسا ؟ » . فيقول: لا . ففى هذا أنزلت : ﴿ عَبَسَ وَتولَّى ﴾ [٢].

وقد روى الترمذى هذا الحديث ، عن سعيد بن يحيى الأموى ، بإسناده ، مثله ، ثم قال : وقد رواه بعضهم عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : أنزلَت ﴿ عَبَسَ وَتَولَّى ﴾ فى ابن أم مكتوم ، ولم يذكر فيه عن عائشة [٣].

قلت : كذلك هو فى الموطأ [٤] .

ثم روى ابن جرير وابن أبى حاتم أيضا من طريق العوفى ، عن ابن عباس قوله : ﴿ عَبَسَ وَتولَّىٰ. أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴾ ، قال : بينا رسولُ الله ﷺ يناجى عتبةَ بن ربيعة ، وأبا جهل بنَ هشام ، والعباس بن عبد المطلب ــ وكان يتصدى لهم كثيرا ، ويحرص [٥] عليهم أن يؤمنوا ــ فأقبل إليه رجل أعمى ــ يقال له عبد الله بن أم مكتوم ــ يمشى وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبى ﷺ آية من القرآن ، وقال : يا رسول الله ، علمنى مما علمك الله . فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وعبس فى وجهه ، وتولى وكَرِهَ كَلامَه ، وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسولُ الله ﷺ نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله ، أمسك الله بعض بصره ، ثم خَفَق برأسه ،ثم أنزل الله : ﴿عَبَسَ وَتَولَّىٰ . أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّىٰ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ . فلما نزل فيه ما نزل ، أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه وقال له النبى ﷺ : « ما حاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ » وإذا ذهب من عنده قال: «هل لك حاجة فى شىء ؟ » . وذلك لما أنزل الله تعالى : ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ. وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ ﴾ [٦] .

فيه غرابة ونكارة ، وقد تُكُلّم فى إسناده .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرّمادى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث، حدثنى يونس ، عن ابن شهاب قال : قال سالم بن عبد الله ، عن عبد الله بن عمر :

---

(١) مسند أبى يعلى (٥/ ٤٣١) ، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٨٢) .

(٢) مسند أبى يعلى (٨/ ٢٦١) ، وتفسير الطبرى (٣٠/ ٣٢) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٢٨) .

(٤) الموطأ (١/ ٢٠٣) .

(٥) فى أ :« ويجعل » .

(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٢) ، ووجه غرابته ما نقله السهيلى فى الروض الأنف عن شيخه ابن العربى قال :« قول المفسرين فى الذى شغل النبى ﷺ أنه الوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعباس كله باطل ، فإن أمية والوليد كانا بمكة ،وابن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما، ولا حضرا معه وماتا كافرين ، أحدهما قبل الهجرة والآخر فى بدر ، ولم يقصد أمية المدينة قط ، ولا حضر عنده مفردا ولا مع آخر » انتهى .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن بلالا يؤذن بليل ، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم » . وهو الأعمى الذى أنزل الله فيه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ ، وكان يؤذن مع بلال . قال سالم : وكان رَجُلاً ضريرَ البصر ، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس ــ حين ينظرون إلى بزوغ الفجر ــ : أذّن[1] .

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغير واحد من السلف والخلف : أنها نزلت [2] فى ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال: عمرو . والله أعلم .

وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم من[3] شريفهم ووضيعهم .

وقال قتادة والسدى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعنى : القرآن ، ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى : فمن شاء ذكر الله فى جميع أموره . ويحتمل عود الضمير على الوحى ؛ لدلالة الكلام عليه .

وقوله : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أى : هذه السورة أو العظة ، وكلاهما متلازم ، بل جميع القرآن ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ أى : معظمة موقرة ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أى : عالية القدر ، ﴿مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أى : من الدنس والزيادة والنقص .

وقوله : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد : هى الملائكة.

وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمد ﷺ ،وقال قتادة : هم القراء . وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : السفرة بالنبطية : القراء .

وقال ابن جرير : الصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعنى بين الله وبين خلقه ، ومنه يقال: السفير : الذى يسعى بين الناس فى الصلح والخير ، كما قال الشاعر :

وَما أَدَعُ السّفَارَةَ بَين قَومى وَما أَمْشى بغش إن مَشَيتُ [4]

وقال البخارى : سَفَرَةٌ : الملائكة . سَفرت : أصلحت بينهم . وجعلت الملائكةُ إذا نَزَلت بوَحْى الله وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم[5] .

وقوله : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أى : خُلقهم كريم حَسَنٌ شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة . ومن هاهنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن زُرَارة بن أوفى ، عن سعد ابن هشام ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السّفَرَة الكرام البَرَرَة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » .

(١) أصل الحديث فى صحيح مسلم برقم (١٠٩٢) .
(٢) فى م : «أنها أنزلت » . (٣) فى أ : « بين » .
(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٥) .
(٥) صحيح البخارى (٨/ ٦٩١) « فتح » .

أخرجه الجماعة من طريق قتادة ، به [١] .

﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بنى آدم : ﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ . قال الضحاك، عن ابن عباس : ﴿ قُتِلَ الإنسَانُ ﴾ : لعن الإنسان . وكذا قال أبو مالك . وهذا لجنس الإنسان المكذب ؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند ،بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم .

قال ابن جرير [٢] : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما أشد كفره ! وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد : أى شىء جعله كافراً ؟ أى : ما حمله على التكذيب بالمعاد [٣] .

وقال قتادة ــ وقد حكاه البغوى عن مقاتل والكلبى ــ : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما ألعنه .

ثم بين تعالى له كيف خلَقه الله من الشىء الحقير ،وأنه قادر على إعادته كما بدأه ، فقال: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ أى : قدر أجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد . ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ ، قال العوفى ، عن ابن عباس : ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه . وكذا قال عكرمة ، والضحاك ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى ، واختاره ابن جرير [٤] .

وقال مجاهد : هذه كقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣] أى : بيّنا [٥] له ووَضّحناه وسَهلنا عليه علمه [٦]، وهكذا قال الحسن ، وابن زيد .وهذا هو الأرجح ،والله أعلم.

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : إنه بعد خلقه له ﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : جعله ذا قبر . والعرب تقول: « قبرتُ الرجل » : إذا ولِى ذلك منه ، وأقبره الله . وعَضبتُ قرن الثور ، وأعضبه الله ، وبترت ذنب البعير وأبتره الله . وطردت عنى فلاناً ، وأطرده الله ، أى : جعله طريدا ، قال الأعشى:

لَو أَسْنَدَتْ مَيتاً إلى نَحْرِها [٧] عَاش ، ولَم يُنقَل إلى قَابِر [٨]

(١) المسند (٦/ ٤٨) وصحيح البخارى برقم (٤٩٣٧) وصحيح مسلم برقم (٧٩٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٥٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٠٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٤٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٧٩).

(٢) فى أ:« ابن جريج » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٥) ، وقد تصرف الحافظ هنا فى كلامه .

(٤) تفسير الطبرى(٣٠/ ٣٦) .

(٥) فى أ :« أى بيناه » .

(٦) فى أ:« عمله » .

(٧) فى م ، أ :« إلى صدرها» .

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٦) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه بعد موته ، ومنه يقال : البعث والنشور ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] ، ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أصبغُ بنُ الفَرَج ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث : أن دراجا أبا السمح أخبره ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ قال : « يأكل الترابُ كلَّ شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذَنَبِه [(١)] » . قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « مثل حبة خردل منه ينشؤون » [(٢)] .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيح من رواية الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، بدون هذه الزيادة ، ولفظه : « كل ابن آدم يَبْلى إلا عَجْبُ الذَّنَب ، منه خلق وفيه يُركَّب »[(٣)] .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ ، قال ابن جرير : يقول : كلا ، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر ؛ من أنه قد أدى حق الله عليه فى نفسه وماله ، ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يقول : لم يُؤد ما فُرض عليه من الفرائض لربه عز وجل .

ثم روى ــ هو وابن أبى حاتم ــ من طريق ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد قوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال : لا يقضى أحد أبدا كل ما افتُرِض عليه . وحكاه البغوى ، عن الحسن البصرى، بنحو من هذا . ولم أجد للمتقدمين فيه كَلاماً سوى هذا . والذى يقع لى فى معنى ذلك ــ والله أعلم ــ أن المعنى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه ،﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [أى] [(٤)] : لا يفعله الآن حتى تنقضى المدة،ويفرغ القدر من بنى آدم ممن كتب تعالى[(٥)] له أن سيُوجَدُ منهم،ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كونا وقدرا ، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم .

وقد روى ابنُ أبى حاتم ، عن وهب بن مُنَبّه قال : قال عُزَير ، عليه السلام : قال الملك الذى جاءنى : فإن القبور هى بطنُ الأرض ، وإن الأرض هى أم الخلق ، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق ، وتمت هذه القبورُ التى مَدّ الله لها ، انقطعت الدنيا ومات من عليها ، ولفظت الأرض ما فى جوفها ، وأخرجت القبورُ ما فيها ، وهذا شبيه بما قلناه من معنى الآية ، والله ــ سبحانه وتعالى ــ أعلم بالصواب .

وقال[(٦)] : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ : فيه امتنان ، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاما بالية وترابا متمزقا ،﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ أى : أنزلناه من السماء على الأرض ، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أى : أسكناه فيها فَدَخل فى تُخُومها وتَخَلّل فى

(١) فى أ:« إلا عجز الذنب » .

(٢) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/٦٠٩) من طريق بحر بن نصر ، عن ابن وهب به ، وقال :« حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » قلت: دراج عن أبى الهيثم ضعيف .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨١٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥) .

(٤) زيادة من م ، أ.

(٥) فى م :« ممن كتب الله » .

(٦) فى أ :« وقوله » .

أجزاء الحب المودَع فيها ، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ، ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ ، فالحب : كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو : الفِصْفِصة التى تأكلها الدواب رطبة . ويقال لها : القَتّ أيضا . قال ذلك ابن عباس ،وقتادة ،والضحاك ، والسدى .

وقال الحسن البصرى : القضب : العلف .

﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ : وهو معروف ، وهو أدْمٌ وعصيره أدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . ﴿وَنَخْلًا ﴾ يؤكل بلحا بسرا ، ورطبا ، وتمرا ، ونيئا ، ومطبوخا ،ويعتصر منه رُبٌّ وخل . ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى: بساتين . قال الحسن ، وقتادة : ﴿ غُلْبًا ﴾ : نخل غلاظ كرام . وقال ابن عباس ، ومجاهد : «الحدائق» : كل ما التف واجتمع . وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ غُلْبًا [١] ﴾: الشجر الذى يستظل به. وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى : طوال . وقال عكرمة : ﴿غُلْبًا﴾ أى : غلاظ الأوساط . وفى رواية : غلاظ الرقاب [٢]، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل: والله إنه لأغلب . رواه ابن أبى حاتم ، وأنشد ابن جرير للفرزدق :

عَوَى فَأثارَ أغلبَ ضَيْغَمياً ... فَويلَ ابن المَراغَة ما استثَارا [٣]

وقوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ : أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس : الفاكهة : كل ما أكل رطبا . والأبّ ما أنبتت الأرض ، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس ــ وفى رواية عنه : هو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو مالك : الأب : الكلأ . وعن مجاهد، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد : الأب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم . وعن عطاء : كل شىء نبت على وجه الأرض فهو أبٌّ . وقال الضحاك : كل شىء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبٌّ.

وقال ابن إدريس ، عن عاصم بن كليب ، عن أبيه ، عن ابن عباس : الأب : نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس . ورواه ابن جرير من ثلاث طرق ، عن ابن إدريس ، ثم قال : حدثنا أبو كُرَيْب وأبو السائب قالا : حدثنا ابن إدريس ،حدثنا عبد الملك ، عن سعيد بن جبير قال : عدّ ابن عباس وقال : الأب : ما أنبتت الأرض للأنعام .هذا لفظ أبى كريب ، وقال أبو السائب : ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : الأب : الكلأ والمرعى . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة، وابن زيد ، وغير واحد .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا العوام بن حَوشَب ، عن إبراهيم التَّيمى قال : سُئِلَ أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، عن قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إن قلتُ فى كتاب الله ما لا أعلم [٤] .

---

(١) فى م :« الغلب » .
(٢) فى م :« الأرقاب » .
(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٧) .
(٤) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص٢٢٧) ، وسبق الكلام عليه فى مقدمة التفسير .

وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق . فأما ما رواه ابن جرير حيث قال :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن أبي عدي ، حدثنا حُمَيد ، عن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ، فلما أتي على هذه الآية : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال : عرفنا ما الفاكهة ، فما الأب ؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف [١] .

فهو إسناد صحيح ، وقد رواه غير واحد عن أنس ، به . هو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض ، لقوله : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .

وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ : اسم من أسماء يوم القيامة ، عظمه الله ، وحَذّره عباده .

قال ابن جرير : لعله اسم للنفخة فى الصور . وقال البَغَوىّ : ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ : يعنى صيحة القيامة؛ سميت بذلك لأنها تَصُخّ الأسماع ، أى : تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تُصمّها [٢] .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ أى : يراهم ، ويفر منهم ، ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم ، والخطب جليل .

قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه ، أىّ بعل كنتُ لك ؟ فتقول : نعم البعل كنتَ ! وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإنى أطلبُ إليك اليومَ حسنةً واحدةً تهبينها [٣] لى لعلى أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبتَ ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا أتخوف مثل الذى تخاف . قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى بخير . فيقولُ له : يا بنى ، إنى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلى أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا. يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح ــ فى أمر الشفاعة ــ : أنه إذا طلب إلى كل من أولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق ، يقول : نفسى نفسى ، لا أسأله اليوم إلا نفسى ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول :

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/٣٨) ، ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٧/ ١٨٠) من طريق يزيد به ، وتقدم الكلام عليه فى مقدمة التفسير .
(٢) فى أ: « تصخها » . (٣) فى أ : « تهبيها » .

لا أسأله اليومَ إلا نفسى ، لا أسأله مريم التى ولدتنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ** ﴾ [١].

قال قتادة : الأحب فالأحبَ ، والأقرب فالأقربَ ، من هول ذلك اليوم .

وقوله : ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ أى : هو فى شُغُل شاغل عن غيره .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار بن الحارث ، حدثنا الوليد بن صالح ، حدثنا ثابت أبو زيد العباداني ، عن هلال بن خَبَّاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: « تحشرون حفاة عراة مشاة غُرلاً » . قال : فقالت زوجته : يا رسول الله ، أوَ يرى [٢] بعضنا عورة بعض ؟ قال : « ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ ». أو قال : « ما أشغله عن النظر ».

وقد رواه النسائى منفردا به ، عن أبى داود ، عن عارم ، عن ثابت بن يزيد ــ وهو أبو زيد الأحول البصرى ، أحد الثقات ــ عن هلال بن خَبَّاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، به[٣] . وقد رواه الترمذى عن عَبد بن حُمَيد ، عن محمد بن الفضل ، عن ثابت بن يزيد ، عن هلال ابن خَبَّاب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « تُحشَرون حُفَاة عُرَاة غُرْلاً » . فقالت امرأة : أيبصر ــ أو : يرى ــ بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة ، ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ » [٤] . ثم قال الترمذى : وهذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن ابن عباس ، رضى الله عنه [٥].

وقال النسائى : أخبرنى عمرو بن عثمان ، حدثنا بَقيَّة ، حدثنا الزبيدى ، أخبرنى الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلا » . فقالت عائشة : يا رسول الله ، فكيف بالعورات ؟ فقال : « ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ » [٦].

انفرد به النسائى من هذا الوجه .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أزهر بن حاتم ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن عائذ ابن شُرَيح ، عن أنس بن مالك قال : سألت عائشة ، رضى الله عنها ، رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى سائلتك عن حديث فتخبرنى أنتَ به . فقال : « إن كان عندى منه علم » . قالت : يا نبى الله ، كيف يُحشر الرجال ؟ قال : « حفاة عراة » . ثم انتظَرتْ ساعة فقالت : يا نبى الله ، كيف يحشر النساء ؟ قال : « كذلك حفاة عراة » . قالت : واسوأتاه من يوم القيامة ! قال : «وعن أى ذلك تسألين؟ إنه قد نزل على آية لا يضرك كان عليك ثياب أو لا يكون ».

---

(١) أحاديث الشفاعة سبقت عند تفسير أول سورة الإسراء .

(٢) فى م :« يا رسول الله ، ننظر أو يرى » .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤٧) .

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٣٢) .

(٥) فى أ :« رضى الله تعالى عنهما » .

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤٨) .

قالت : أيةُ آية هي يا نبي الله ؟ قال : « ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » (١) .

وقال البغوى فى تفسيره : أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشّريحى ، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى ، أخبرنى الحسين بن عبد الله ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ، حدثنا محمد بن عبد العزيز ،حدثنا ابن أبى أويس ، حدثنا أبى ، عن محمد بن أبى عياش ، عن عطاء بن يسار ، عن سودة زوج النبى ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غُرلا قد ألجمهم العرق، وبلغ شحوم الآذان » . فقلت : يا رسول الله ، واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : «قد شُغل الناس ، ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » (٢) .

هذا حديث غريب من هذا الوجه جدا ، وهكذا رواه ابن جرير عن أبى عمار الحسين بن حريث المروزى ، عن الفضل بن موسى ، به(٣) . ولكن قال أبو حاتم الرازى : عائذ بن شريح ضعيف ، فى حديثه ضعف (٤).

وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : يكون الناس هنالك فريقين : ﴿ وُجُوهٌ مُّسْفِرَةٌ ﴾ أى : مستنيرة ، ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : مسرورة فرحة من سرور قلوبهم ، قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء أهل الجنة . ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يعلوها ويغشاها (٥) قترة ، أى : سواد .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سهل بن عثمان العسكرى ، حدثنا أبو على محمد مولى جعفر بن محمد ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « يلجم الكافرَ العرقُ ثم تقع الغُبْرة على وجوههم » . قال : فهو قوله : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ (٦) .

وقال ابن عباس : ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يغشاها سواد الوجوه .

وقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أى : الكفرة قلوبهم ، الفجرة فى أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٧] .

آخر تفسير سورة « عبس » ولله الحمد والمنة

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٣٠/٣٩) ، عن الحسين بن حريث عن الفضل بن موسى به .

(٢)معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٣٤٠) ، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥١٤) من طريق إسماعيل بن إسحاق ، عن إسماعيل بن أبى أويس به نحوه . وقال :« هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ» .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٩) .

(٤) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٧/ ١٦) .

(٥) فى م :« تعلوها وتغشاها » .

(٦) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٤٢٤) ، وله شاهد من حديث ابن مسعود : رواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٥٨٢) «موارد» من طريق شريك ،عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن ابن مسعود مرفوعا :« إن الكافر ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول : أرحنى ولو إلى النار » .

٨٠ – سورة عبس
(مكية وهى إثنان وأربعون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ ٨٠ عبس

أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ٨٠ عبس

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ ٨٠ عبس

﴿ سورة عبس مكية وآياتها إثنان وأربعون ﴾

١، ٢ (بسم الله الرحمن الرحيم) (عبس وتولى) (أن جاءه الأعمى) روى أن ابن أم مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن أبى ربيعة الفهرى وأم مكتوم اسم أم أبيه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم فقال له يارسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله تعالى وكرر ذلك وهو لايعلم تشاغله عليه الصلاة والسلام بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ويقول له هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين وقرىء عبس بالتشديد للمبالغة وأن جاءه علة لتولى أو عبس على اختلاف الرأيين أى لأن جاءه الأعمى والتعرض لعنوان عماه إما لتمهيد عذره فى الإقدام على قطع كلامه عليه الصلاة والسلام بالقوم والإيذان باستحقاقه بالرفق والرأفة وإما لزيادة الإنكار كأنه قيل تولى لكونه أعمى كما أن الالتفات فى قوله تعالى (وما يدريك) لذلك فإن المشافهة أدخل فى تشديد العتاب أى وأى شىء يجعلك

٣ داريا بحاله حتى تعرض عنه وقوله تعالى (لعله يزكى) استئناف وارد لبيان مايلوح به ماقبله فإنه مع إشعاره بأن له شأناً منافياً للإعراض عنه خارجا عن دراية الغير وإدرائه مؤذن بأنه تعالى يدريه ذلك أى لعله يتطهر بما يقتبس منك من أوضار الأوزار بالكلية وكلمة لعل مع تحقق التزكى واردة على سنن الكبرياء أو على اعتبار معنى الترجى بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام للتنبيه على أن الإعراض عنه عند كونه مرجو التزكى مما لايجوز فكيف إذا كان مقطوعا بالتزكى كما فى قولك لعلك ستندم على مافعلت وفيه إشارة إلى أن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لايرجى منهم التزكى والتذكر أصلا .

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ٨٠ عبس

أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ ٨٠ عبس

فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ ٨٠ عبس

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ٨٠ عبس

وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ ٨٠ عبس

وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ ٨٠ عبس

فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ٨٠ عبس

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ ٨٠ عبس

٤ وقوله تعالى (أو يذكر) عطف على يزكى داخل معه فى حكم الترجي وقوله تعالى (فتنفعه الذكرى) بالنصب على جواب لعل وقرىء بالرفع عطفاً على يذكر أى أو يتذكر فتنفعه موعظتك إن لم يبلغ درجة التزكى التام وقيل الضمير فى لعله للكافر فالمعنى إنك طمعت فى أن يتزكى أو يذكر فتقربه الذكرى

٥ إلى قبول الحق ولذلك توليت عن الأعمى وما يدريك أن ذلك مرجو الوقوع (أما من استغنى) أى

٦ عن الإيمان وعما عندك من العلوم والمعارف التى ينطوى عليها القرآن (فأنت له تصدى) أى تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه وفيه مزيد تنفير له عليه الصلاة والسلام عن مصاحبتهم فإن الإقبال على المدبر ليس من شيم الكبار وقرىء تصدى بإدغام التاء فى الصاد وقرىء تصدى بضم التاء أى تعرض ومعناه يدعوك إلى التصدى له داع من الحرص والتهالك على إسلامه

٧ (وما عليك أن لا يزكى) وليس عليك بأس فى أن لا يتزكى بالإسلام حتى تهتم بأمره وتعرض عمن أسلم والجملة حال من ضمير تصدى وقيل ما استفهامية للإنكار أى أى شيء عليك فى أن لا يتزكى وما له

٨ النفى أيضاً (وأما من جاءك يسعى) أى حال كونه مسرعا طالباً لما عندك من أحكام الرشد وخصال

٩ الخير (وهو يخشى) أى الله تعالى وقيل يخشى أذية الكفار فى إتيانك وقيل يخشى الكبوة إذ لم يكن

١٠ معه قائد والجملة حال من فاعل يسعى كما أنه حال من فاعل جاءك (فأنت عنه تلهى) تتشاغل يقال لهى عنه والتهى وتلهى وقرىء تتلهى وتلهى أى يلهيك شأن الصناديد وفى تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعلين تنبيه على أن مناط الإنكار خصوصيته عليه الصلاة والسلام أى مثلك خصوصاً لا ينبغى أن يتصدى للمستغنى ويتلهى الفقير الطالب للخير وتقديم له وعنه للتعريض باهتمامه عليه الصلاة والسلام

١١ بمضمونهما . روى أنه عليه الصلاة والسلام ما عبس بعد ذلك فى وجه فقير قط ولا تصدى لغنى (كلا)

فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ٨٠ عبس

فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ ٨٠ عبس

مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ ٨٠ عبس

بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ ٨٠ عبس

ردع له عليه الصلاة والسلام عما عوتب عليه من التصدى لمن استغنى عما دعاه إليه من الإيمان والطاعة وما يوجبهما من القرآن الكريم مبالغاً فى الاهتمام بأمره متهالكا على إسلامه معرضاً بسبب ذلك عن إرشاد من يسترشده وقوله تعالى (إنها تذكرة) أى موعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها تعليل * للردع عما ذكر ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذى استغنى عنه من تصدى عليه الصلاة والسلام له وتحقيق أن شأنه أن يكون موعظة حقيقة بالاتعاظ بها فمن رغب فيها اتعظ بها كما نطق به قوله تعالى (فمن شاء ذكره) أى حفظه واتعظ به ومن رغب عنها كما فعل المستغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره ١٢ فالضميران للقرآن وتأنيث الأول لتأنيث خبره وقيل الأول للسورة أو للآيات السابقة والثانى للتذكرة والتذكير لأنها فى معنى الذكر والوعظ وليس بذاك فإن السورة والآيات وإن كانت متصفة بما سيأتى من الصفات الشريفة لكنها ليست مما ألقى على من استغنى عنه واستحق بسبب ذلك ماسيأتى من الدعاء عليه والتعجب من كفره المفرط لنزولها بعد الحادثة وأما من جوز رجوعهما إلى العتاب المذكور فقد أخطأ وأساء الأدب وخبط خبطاً يقضى منه العجب فتأمل وكن على الحق المبين وقوله تعالى (فى صحف) ١٣ متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة وما بينهما اعتراض جىء به للترغيب فيها والحث على حفظها أى كائنة فى صحف منتسخة من اللوح أو خبر ثان لأن (مكرمة) عند الله عز وجل (مرفوعة) أى فى السماء ١٤ السابعة أو مرفوعة المقدار والذكر (مطهرة) منزهة عن مساس أيدى الشياطين (بأيدى سفرة) أى ١٥ كتبة من الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح على أنه جمع سافر من السفر وهو الكتب وقيل بأيدى رسل من الملائكة يسفرون بالوحى بينه تعالى وبين الأنبياء على أنه جمع سفير من السفارة وحملهم على الأنبياء عليهم السلام بعيد فإن وظيفتهم التلقى من الوحى لا الكتب منه وإرشاد الأمة بالأمر والنهى وتعليم الشرائع والأحكام لا مجرد السفارة إليهم وكذا حملهم على القراء لقراءتهم الأسفار أو على أصحابه عليه الصلاة والسلام وقد قالوا هذه اللفظة مختصة بالملائكة لا تكاد تطلق على غيرهم وإن جاز الإطلاق بحسب اللغة والباء متعلقة بمطهرة قال القفال لما لم يمسها إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسها وقال القرطبى إن المراد بما فى قوله تعالى لا يمسه إلا المطهرون هؤلاء السفرة الكرام البررة .

كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ٨٠ عبس

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ٨٠ عبس

مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ ٨٠ عبس

مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ٨٠ عبس

ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ٨٠ عبس

ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ٨٠ عبس

ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ٨٠ عبس

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ٨٠ عبس

---

١٦ (كرام) عند الله عز وجل أو متعطفين على المؤمنين يكلونهم ويستغفرون لهم (بررة) اتقياء وقيل
١٧ مطيعين لله تعالى من قولهم فلان يبر خالقه أى يطيعه وقيل صادقين من بر فى يمينه (قتل الإنسان) دعاء
* عليه بأشنع الدعوات وقوله تعالى (ما أكفره) تعجب من إفراطه فى الكفران وبيان لاستحقاقه
للدعاء عليه والمراد به إما من استغنى عن القرآن الكريم الذى ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للإقبال
عليه والإيمان به وأما الجنس باعتبار انتظامه له ولأمثاله من أفراده لا باعتبار جميع أفراده وفيه مع
١٨ قصر متنه وتقارب قطريه من الأنباء عن سخط عظيم ومذمة بالغة مالا غاية وراءه وقوله تعالى (من
أى شىء خلقه) شروع فى بيان إفراطه فى الكفران بتفصيل ما أفاض عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى
عمره من فنون النعم الموجبة بالشكر والطاعة مع إخلاله بذلك وفى الاستفهام عن مبدأ خلقه ثم بيانه
١٩ بقوله تعالى (من نطفة خلقه) تحقير له أى من أى شىء حقير مهين خلقه من نطفة مذرة خلقه (فقدره)
فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال أو فقدره أطواراً إلى أن تم خلقه وقوله تعالى
٢٠ (ثم السبيل يسره) منصوب بمضمر يفسره الظاهر أى ثم سهل مخرجه من البطن بأن فتح فم الرحم
وألهمه أن ينتكس أو يسر له سبيل الخير والشر ومكنه من السلوك فيهما وتعريف السبيل باللام
٢١ دون الإضافة للإشعار بعمومه (ثم أماته فأقبره) أى جعله ذا قبر يوارى فيه تكرمة له ولم يدعه
مطروحاً على وجه الأرض جزراً للسباع والطير كسائر الحيوان يقال قبر الميت إذا دفنه وأقبره إذا
٢٢ أمر بدفنه أو مكن منه وعد الإماتة من النعم لأنها وصلة فى الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم (ثم
إذا شاء أنشره) أى إذا شاء إنشاره أنشره على القاعدة المستمرة فى حذف مفعول المشيئة وفى تعليق
٢٣ الإنشار بمشيئته تعالى إيذان بأن وقته غير متعين بل هو تابع لها وقرىء نشره (كلا) ردع للإنسان

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ٨٠ عبس

أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ٨٠ عبس

ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ ٨٠ عبس

فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ ٨٠ عبس

* عما هو عليه وقوله تعالى (لما يقض ما أمره) بيان لسبب الردع أى لم يقض بعد من لدن آدم عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده ما أمره الله تعالى بأسره إذ لايخلو أحد عن تقصير ما كذا قالوا وهكذا نقل عن مجاهد وقتادة ولا ريب فى أن مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم جناية الإنسان وتحقيق كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم وظاهر أن ذلك لايتحقق بهذا القدر من نوع تقصير لايخلو عنه أحد من أفراده كيف لا وقد قال عليه الصلاة والسلام شيبتنى سورة هود لما فيها من قوله تعالى فاستقم كما أمرت فالوجه أن يحمل عدم القضاء على عموم النفى لاعلى نفى العموم إما على أن المحكوم عليه هو المستغنى أو هو الجنس لكن لا على الإطلاق بل على أن مصداق الحكم بعدم القضاء بعض أفراده وقد أسند إلى الكل كما فى قوله تعالى إن الإنسان لظلوم كفار للإشباع فى اللوم بحكم المجانسة على طريقة قولهم بنو فلان قتلوا فلانا .والقاتل واحد منهم وإما على أن مصداقه الكل من حيث هو كل بطريق رفع الإيجاب الكلى دون السلب الكلى فالمعنى لما يقض جميع أفراده ما أمره بل أخل به بعضها بالكفر والعصيان مع أن مقتضى ما فصل من فنون النعماء الشاملة للكل أن لا يتخلف عنه أحد أصلا هذا وقد قيل كلا بمعنى حقاً فيتعلق بما بعده أى حقاً لم يعمل بما أمره به (فلينظر الإنسان ٢٤ إلى طعامه) شروع فى تعداد النعم المتعلقة ببقائه بعد تفصيل النعم المتعلقة بحدوثه أى فلينظر إلى طعامه الذى عليه يدور أمر معاشه كيف دبرناه وقوله تعالى (أنا صببنا الماء صباً) أى الغيث بدل اشتمال من ٢٥ طعامه لأن الماء سبب لحدوث الطعام فهو مشتمل عليه وقرىء أنا على الاستئناف وقرىء أنى بالإمالة أى كيف صببنا إلى آخره أى صببناه صباً عجيباً (ثم شققنا الأرض) أى بالنبات (شقاً) بديعاً لائقاً ٢٦ بما يشقها من النبات صغراً وكبراً وشكلا وهيئة وحمل شقها على ما بالكراب يجعل إسناده إلى نون العظمة من قبيل إسناد الفعل إلى سببه يأباه كلمة ثم والفاء فى قوله تعالى (فأنبتنا فيها حباً) فإن الشق ٢٧ بالمعنى المذكور لاترتب بينه وبين الأمطار أصلا ولا بينه وبين إنبات الحب بلا مهلة وإنما الترتيب بين الأمطار وبين الشق المذكور وبين إنبات الحب بلا مهلة فإن المراد بالنبات ما نبت من الأرض إلى أن يتكامل النمو وينعقد الحب فإن إنشقاق الأرض بالنبات لايزال يتزايد ويتسع إلى تلك المرتبة على أن مساق النظم الكريم لبيان النعم الفائضة من جنابه تعالى على وجه بديع خارج عن العادات المعهودة كما ينبىء عنه تأكيد الفعلين بالمصدرين فتوسيط فعل المنعم عليه فى حصول تلك النعم مخل بالمرام

وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ — ٨٠ عبس

وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ — ٨٠ عبس

وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ — ٨٠ عبس

وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ — ٨٠ عبس

مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ — ٨٠ عبس

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ — ٨٠ عبس

يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ — ٨٠ عبس

---

٢٨ وقوله تعالى (وعنباً) عطف على حباً وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف
* عليه فلا ضير فى خلو إنبات العنب عن شق الأرض (وقضباً) أى رطبة سميت بمصدر قضبه أى قطعه
٢٩ مبالغة كأنها لتكرر قطعها وتكثرة نفس القطع (وزيتوناً ونخلا) الكلام فيهما وفى أمثالهما كما فى العنب
٣٠ (وحدائق غلباً) أى عظاماً وصف به الحدائق لتكاثفها وكثرة أشجارها أو لأنها ذات أشجار غلاظ
٣١ مستعار من وصف الرقاب (وفاكهة وأباً) أى مرعى من أبه إذا أمه أى قصده لأنه يؤم وينتجع أو
من أب لكذا إذا تهيأ له لأنه متهيء للرعى أو فاكهة يابسة تؤب للشتاء وعن الصديق رضى الله عنه
أنه سئل عن الأب فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به وعن
عمر رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال كل هذا قد عرفنا فما الأب ثم رفض عصا كانت بيده وقال
هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن أم عمر أن لاتدرى ما الأب ثم قال اتبعوا ماتبين لكم من
٣٢ هذا الكتاب ومالا فدعوه (متاعا لكم ولأنعامكم) إما مفعول له أى فعل ذلك تمتيعاً لكم ولمواشيكم
فإن بعض النعم المعدودة طعام لهم وبعضها علف لدوابهم والالتفات لتكميل الامتنان وإما مصدر
مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائد أى متعكم بذلك متاعا أو لفعل مترتب عليه أى متعكم بذلك فتمتعتم
متاعا أى تمتعاً كما مر غير مرة أو مصدر من غير لفظه فإن ماذكر من الأفعال الثلاثة فى معنى التمتيع
٣٣ (فإذا جاءت الصاخة) شروع فى بيان أحوال معادهم إثر بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم والفاء للدلالة
على ترتب مابعدها على ماقبلها من فنون النعم عن قريب كما يشعر لفظ المتاع بسرعة زوالها وقرب
اضمحلالها والصاخة هى الداهية العظيمة التى يصخ لها الخلائق أى يصيخون لها من صخ لحديثه إذا
أصاخ له واستمع وصفت بها النفخة الثانية لأن الناس يصيخون لها وقيل هى الصيحة التى تصخ الآذان
٣٤ أى تصمها لشدة وقعها وقيل هى مأخوذة من صخه بالحجر أى صكه وقوله تعالى (يوم يفر المرء من

وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ ٨٠ عبس

وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ٨٠ عبس

لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ٨٠ عبس

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ٨٠ عبس

ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ٨٠ عبس

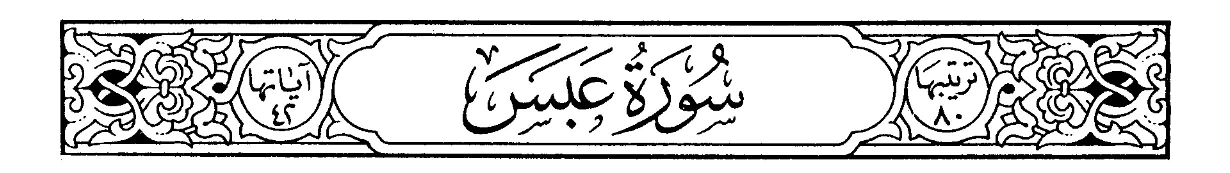
وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ٨٠ عبس

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ٨٠ عبس

٣٦،٣٥ أخيه) (وأمه وأبيه) (وصاحبته وبنيه) إما منصوب بأعنى تفسيراً للصاخة أو بدل منها مبنى على الفتح بالإضافة إلى الفعل على رأى الكوفيين وقيل بدل من إذا جاءت كما مر فى قوله تعالى يوم يتذكر الخ أى يعرض عنهم ولا يصاحبهم ولا يسأل عن حالهم كما فى الدنيا لاشتغاله بحال نفسه وأما تعليل ذلك بعلمه بأنهم لا يغنون عنه شيئاً أو بالحذر من مطالبتهم بالتبعات فيأباه قوله تعالى (لكل امرىء ٣٧ منهم يومئذ شأن يغنيه) فإنه استئناف وارد لبيان سبب الفرار أى لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل يكفيه فى الاهتمام به وأما الفرار حذار من مطالبتهم أو بغضاً لهم كما يروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه يفر قابيل من أخيه هابيل ويفر النبى صلى الله عليه وسلم من أمه ويفر إبراهيم عليه السلام من أبيه ونوح عليه السلام من ابنه ولوط عليه السلام من امرأته فليس من قبيل هذا الفرار وكذا ما يروى أن الرجل يفر من أصحابه وأقربائه لئلا يروه على ما هو عليه من سوء الحال وقرىء يعنيه بالياء المفتوحة والعين المهملة أى يهمه من عناه الأمر إذا أهمه أى أوقعه فى الهم ومنه من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه لا من عناه إذا قصده كما قيل وقوله تعالى (وجوه يومئذ ٣٨ مسفرة) بيان لمآل أمر المذكورين وانقسامهم إلى السعداء والأشقياء بعد ذكر وقوعهم فى داهية دهياء فوجوه مبتدأ وإن كانت نكرة لكونها فى حيز التنويع ومسفرة خبره ويومئذ متعلق به أى مضيئة متهللة من أسفر الصبح إذا أضاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ذلك من قيام الليل وفى الحديث من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وعن الضحاك من آثار الوضوء وقيل من طول ما أغبرت فى سبيل الله (ضاحكة مستبشرة) بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة (ووجوه ٣٩،٤٠ يومئذ عليها غبرة) أى غبار وكدورة (ترهقها) أى تعلوها وتغشاها (قترة) أى سواد وظلمة . ٤١

أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

٨٠ عبس



وتسمى سورة الصاخة وسورة السفرة وسميت في غير كتاب سورة الأعمى وهي مكية لا خلاف وآيها اثنتان وأربعون في الحجازي والكوفي، وإحدى وأربعون في البصري، وأربعون في الشامي والمدني الأول ولما ذكر سبحانه فيما قبلها ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ [النازعات: ٤٥] ذكر عز وجل في هذه من ينفعه الإنذار ومن لم ينفعه فقال عز من قائل:

بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جاءَهُ الأَعْمَى﴾ الخ روي أن ابن أم مكتوم وهو ابن خال خديجة واسمه عمرو بن قيس بن زائدة بن جندب بن هرم بن رواحة بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي القرشي وقيل عبد الله بن عمرو وقيل عبد الله بن شريح بن مالك بن أبي ربيعة الفهري والأول أكثر وأشهر كما في جامع الأصول وأم مكتوم كنية أمه واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية، وغلط الزمخشري في جعلها في الكشاف جدته وكان أعمى وعمي بعد نور وقيل ولد أعمى ولذا قيل لأمه أم مكتوم. أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم فقال: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت. فكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ويقول: «هل لك من حاجة». واستخلفه ﷺ على المدينة فكان يصلي بالناس ثلاث عشرة مرة كما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب عن

أهل العلم بالسير ثم استخلف بعده أبا لبابة وهو من المهاجرين الأولين هاجر على الصحيح قبل النبيّ ﷺ ووهم القرطبي في زعمه أنه مدني وأنه لم يجتمع بالصناديد المذكورين من أهل مكة وموته قيل بالقادسية شهيداً يوم فتح المدائن أيام عمر رضي الله تعالى عنه، ورآه أنس يومئذ وعليه درع وله راية سوداء وقيل رجع منها إلى المدينة فمات بها رضي الله تعالى عنه. وضمير ﴿عبس﴾ وما بعده للنبيّ ﷺ وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلالٌ له ﷺ لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره لأنه لا يصدر عنه ﷺ مثله كما أن في التعبير عنه ﷺ بضمير الخطاب في قوله سبحانه ﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ ذلك لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش والإقبال بعد الإعراض والتعبير عن ابن أم مكتوم بالأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول ﷺ وتشاغله بالقوم. وقيل: إن الغيبة أولاً والخطاب ثانياً لزيادة الإنكار وذلك كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه ثم يقبل على الجاني إذا حمى على الشاكية مواجهاً بالتوبيخ وإلزام الحجة وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك لأنه وصف يناسب الإقبال عليه والتعطف. وفيه أيضاً دفع إيهام الاختصاص بالأعمى المعين وإيماءً إلى أن كل ضعيف يستحق الإقبال من مثله على أسلوب «لا يقضي القاضي وهو غضبان» وإن بتقدير حرف الجر أعني لام التعليل وهو معمول لأول الفعلين على مختار الكوفيين وثانيهما على مختار البصريين وكليهما معاً على مذهب الفراء نعم هو بحسب المعنى علة لهما بلا خلاف أي عبس لأن جاءه الأعمى وأعرض لذلك. وقرأ زيد بن علي «عَبَّسَ» بتشديد الباء للمبالغة لا للتعدية وهو والحسن وأبو عمران الجوني وعيسى «آن» بهمزة ومدة بعدها وبعض القراء بهمزتين محققتين والهمزة في القرائتين للاستفهام الإنكاري ويوقف على ﴿تولى﴾ والمعنى إلاّ أن جاء الأعمى فعل ذلك وضمير ﴿لعله﴾ للأعمى والظاهر أن الجملة متعلقة بفعل الدراية على وجه سد مسد مفعوله أي أي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى لعله يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوضار الإثم.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي يتعظ ﴿فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أي ذكراك وموعظتك والمعنى أنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزك أو تذكر ولو دريت لما كان الذي كان والغرض نفي دراية أنه يزكى أو يذكر والترجي راجع إلى الأعمى أو إلى النبيّ ﷺ على ما قيل دلالة على أن رجاء تزكية أو كونه ممن يرجى منه ذلك كاف في الامتناع من العبوس والإعراض كيف وقد كان استزكاؤه محققاً، ولما هضم من حقه في تعلق الرجاء به لا التحقق اعتبر متعلق التزكي بعض الأوضار ترشيحاً لذلك وفيه إظهار ما يقتضي مقام العظمة ها هنا من إطلاق التزكي وحمله على ما ينطلق عليه الاسم لا الكامل. وقال بعضهم: متعلق الدراية محذوف أي ما يدريك أمره وعاقبة حاله ويطلعك على ذلك. وقوله سبحانه ﴿لعله﴾ الخ استئناف وارد لبيان ما يلوح به ما قبله فإنه مع إشعاره بأن له شأناً منافياً للإعراض عنه خارجاً عن دراية الغير ودرائه مؤذن بأنه تعالى يدريه ذلك. واعتبر في التزكي الكمال فقال: أي لعله يتطهر بما يقتبس منك من أوضار الإثم بالكلية أو يتذكر فتنفعه موعظتك إن لم تبلغ درجة التزكي التام، ولعل الأول أبعد مغزى. وقدم التزكي على التذكر لتقدم التخلية على التحلية وخص بعضهم الثاني بما إذا كان ما يتعلمه من النوافل والأول بما إذا كان سوى ذلك وهو كما ترى وفي الآية تعريض وإشعار بأن من تصدى ﷺ لتزكيتهم وتذكيرهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكي والتذكر أصلاً فهي كقولك لمن يقرر مسألة لمن لا يفهمها وعنده آخر قابل لفهمها: لعل هذا يفهم ما تقرر فإنه يشعر بأنه قصد تفهيم غيره وليس بأهل لما قصده، وقيل: جاء التعريض من جهة أن المحدث عنه كان متزكياً من الآثام متعظاً

وقيل ضمير ﴿لعله﴾ للكافر والترجي راجع إلى الرسول ﷺ أي إنك طمعت في تزكيه بالإسلام وتذكره بالموعظة ولذلك أعرضت عن غيره فما يدريك أن ما طمعت فيه كائن وضعف بعدم تقدم ذكر الكافر وبإفراد الضمير والظاهر جمعه أي بناءً على المشهور في أن من تشاغل عليه الصلاة والسلام به كان جمعاً وجاء في بعض الروايات أنه كان واحداً. وقرأ الأعرج وعاصم في رواية «أو يَذْكُر» بسكون الذال وضم الكاف وقرأ الأكثر «فَتَنْفَعُهُ» بالرفع عطفاً على ﴿يذكر﴾ وبالنصب قرأ عاصم في المشهور والأعرج وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني وهو عند البصريين بإضمار أن بعد الفاء وعند الكوفيين في جواب الترجي وهو كالتمني عندهم ينصب في جوابه. وفي الكشف أن النصب يؤيد رجوع ضمير لعله على الكافر لإشمام الترجي معنى التمني لبعد المرجو من الحصول أي بالنظر إلى المجموع إذ قد حصل من العباس وعلى السابق وجهه ترشيح معنى الهضم فتذكر ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ أي عن الإيمان وعما عندك من العلوم والمعارف التي ينطوي عليها القرآن وفي معناه ما قيل استغنى بكفره عما يهديه وقيل: أي وأما من كان ذا ثروة وغنى وتعقب بأنه لو كان كذلك لذكر الفقر في مقابله وأجيب بما ستعمله إن شاء الله تعالى ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ أي تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم فإن الإقبال على المدبر مخل بالمروءة، ومن هنا قيل:

لا أبتغي وصل من لا يبتغي صلتي ... ولا ألين لمن لا يبتغي ليني

والله لو كرهت كفي مصاحبتي ... يوماً لقلت لها عن صحبتي بيني

وقرأ الحرميان «تَصَّدَّى» بتشديد الصاد على أن الأصل تتصدى فقلبت التاء صاداً وأدغمت وقرأ أبو جعفر «تُصَدَّى» بضم التاء وتخفيف الصاد مبنياً للمفعول أي تعرض ومعناه يدعوك إلى التصدّي والتعرض له داع من الحرص ومزيد الرغبة في إسلامه، وأصل ﴿تصدى﴾ على ما في البحر تصدد من الصدد وهو ما استقبلك وصار قبالتك يقال داري صدد داره أي قبالتها، وقيل من الصدى وهو العطش وقيل من الصدى وهو الصوت المعروف ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم فما نافية والجملة حال من ضمير ﴿تصدى﴾ والممنوع عنه في الحقيقة الإعراض عمن أسلم لا الإقبال على غيره والاهتمام بأمره حرصاً على إسلامه، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ استفهامية للإنكار أي أي شيء عليك في أن لا يتزكى ومآله النفي أيضاً﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ أي حال كونه مسرعاً طالباً لما عندك من أحكام الرشد وخصال الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ أي يخاف الله تعالى وقيل أذية الكفار في الإتيان وقيل العثار والكبوة إذ لم يكن معه قائد والجملة حال من فاعل﴿يسعى﴾ كما أن جملة ﴿يسعى﴾ حال من فاعل ﴿جاءك﴾ واستظهر بعض الأفاضل أن النظم الجليل من الاحتباك ذكر الغنى أولاً للدلالة على الفقر ثانياً، والمجيء والخشية ثانياً للدلالة على ضدهما أولاً وكأنه حمل استغنى على ما نقل أخيراً واستشعر ما قيل عليه فاحتاج لدفعه إلى هذا التكلف وعدم الاحتياج إليه على ما نقلناه في غاية الظهور ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ تتشاغل يقال لهى عنه كرضى ورمى والتهى وتلهى. وفي تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعلين تنبيه على أن مناط الإنكار خصوصيته عليه الصلاة والسلام وتقديم له وعنه قيل للتعريض بالاهتمام بمضمونها وقيل للعناية لأنهما منشأ العتاب وقيل للفاصلة وقيل للحصر وذكر التصدي في المستغني دون الاشتغال به وهو المقابل للتلهي عن المسرع الخاشي والتلهي عنه دون عدم التصدي له وهو المقابل للتصدي لذلك قيل للإشعار

بأن العتاب للاهتمام بالأول لا للاشتغال به إذ الاشتغال بالكفار غير ممنوع وعلى الاشتغال عن الثاني لا لأنه لا اهتمام له ﷺ في أمره إذ الاهتمام غير واجب لأنه عليه الصلاة والسلام ليس إلاَّ منذراً. وقرأ البزي عن ابن كثير «عنهو تلهى» بإدغام تاء المضارعة في تاء تفعل وأبو جعفر «تلَهَّى» بضم التاء مبنياً للمفعول أي يشغلك الحرص على دعاء الكافر للإسلام وطلحة «تتلهى» بتاءين وعنه بتاء واحدة وسكون اللام ﴿كَلَّآ﴾ مبالغة في إرشاده ﷺ إلى عدم معاودة ما عوقب عليه ﷺ، وقد نزل ذلك كما في خبر رواه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس بعد أن قضى عليه الصلاة والسلام نجواه وذهب إلى أهله، وجوز كونه إرشاداً بليغاً إلى ترك المعاتب عليه عليه الصلاة والسلام بناءً على أن النزول في أثناء ذلك وقبل انقضائه. وفي بعض الآثار أنه ﷺ بعدما عبس في وجه فقير ولا تصدى لغني وتأدب الناس بذلك أدباً حسناً فقد روي عن سفيان الثوري أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء.

والضمير في قوله تعالى ﴿إِنَّهَا﴾ للقرآن العظيم والتأنيث لتأنيث الخبر أعني قوله سبحانه ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي موعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها وكذا الضمير في قوله عز وجل ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ والجملة والمؤكدة تعليل لما أفادته كلا ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذي استغنى عنه من تصدى عليه الصلاة والسلام له والجملة الثانية اعتراض جيء به للترغيب في القرآن والحث على حفظه أو الاتعاظ به واقتران الجملة المعترض بها بالفاء قد صرح به ابن مالك في التسهيل من غير نقل اختلاف فيه وكلام الزمخشري في الكشاف عند الكلام على قوله تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧] نص في ذلك نعم قيل إنه قيل له ﴿فمن شاء ذكره﴾ اعتراض فقال لا لأن الاعتراض شرطه أن يكون بالواو أو بدونه فأما بالفاء فلا أي وهو استطراد لكن تعقب بأن النقل لمنافاته ذلك ليس بثبت، ويمكن أن يكون في القوم من ينكر ذلك فوافقه تارة وخالفه أخرى، وما ألطف قول السعد في التلويح الاعتراض يكون بالواو والفاء:

فاعلم فعلم المرء ينفعه

هذا وقيل الضمير الأول للسورة أو للآيات السابقة والثاني للتذكرة والتذكير لأنها بمعنى الذكر والوعظ أو لمرجع الأول والتذكير باعتبار كون ذلك قرآناً ورجح بعدم ارتكاب التأويل قبل الاحتياج إليه وتعقب بأنه ليس بذاك فإن السورة أو الآيات وإن كانت متصفة بما سيأتي إن شاء الله تعالى من الصفات الشريفة لكنها ليست مما ألقى على من استغنى عنه واستحق بسبب ذلك ما سيأتي إن شاء الله تعالى من الدعاء عليه والتعجب من كفره المفرط لنزولها بعد الحادثة وجوز كون الضميرين للمعاتبة الواقعة وتذكير الثاني لكونها عتاباً وفيه أنه يأباه الوصف بالصفات الآتية وإن كان باعتبار أن العتاب وقع بالآيات المذكورة قبل وهي متصفة بما ذكر جاء ما سمعت آنفاً وقيل لك أن تجعلهما للدعوة إلى الإسلام وتذكير الثاني لكونها دعاء وهذا على ما فيه مما يأباه المقام. وقوله تعالى ﴿فِي صُحُفٍ﴾ متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة أو خبر ثان لأن أي كائنة أو مثبتة في صحف والمراد بها الصحف المنتسخة من اللوح المحفوظ. وعن ابن عباس هي اللوح نفسه وهو غير ظاهر وقيل الصحف المنزلة على الأنبياء عليهم السلام كقوله تعالى ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ [الشعراء: ١٩٦] وقيل: صحف المسلمين على أنه إخبار بالغيب فإن القرآن بمكة لم يكن في الصحف وإنما كان متفرقاً في الدفاف والجريد ونحوهما، وأول ما جمع في صحيفة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وهو كما ترى ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ عند الله عز وجل ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ أي في السماء السابعة كما قال يحيى بن سلام أو مرفوعة القدر كما

قيل ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ منزهة عن مساس أيدي الشياطين أو عن كل دنس على ما رُوي عن الحسن، وقيل: عن الشبه والتناقض والأول قيل مأخوذ من مقابلته بقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي كتبة من الملائكة عليهم السلام كما قال مجاهد وجماعة فإنهم ينسخون الكتب من اللوح وهو جمع سافر أي كاتب والمصدر السفر كالضرب. وعن ابن عباس هم الملائكة المتوسطون بين الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام على أن جمع سافر أيضاً بمعنى سفير أي رسول وواسطة، والمشهور في مصدره بهذا المعنى السفارة بكسر السين وفتحها وجاء فيه السفر أيضاً كما في القاموس. وقيل: هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم سفراء بين الله تعالى والأمة أو لأنهم يكتبون الوحي ولا يخفى بُعده فإن الأنبياء عليهم السلام وظيفتهم التلقي من الوحي لا الكتب لما يوحى على أن خاتمهم ﷺ لم يكن يكتب القرآن بل لم يكتب أصلاً على ما هو الشائع وقد مر تحقيقه وكذا وظيفتهم إرشاد الأمة بالأمر والنهي وتعليم الشرائع والأحكام لا مجرد السفارة إليهم. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن منبه أنهم أصحاب محمد ﷺ قيل لأنهم سفراء ووسائط بينه عليه الصلاة والسلام وبين سائر الأمة، وقيل: لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتعليم والتعلم وفي رواية عن قتادة أنهم القراء وكان القولين ليس بالمعول عليه وقد قالوا هذه اللفظة مختصة بالملائكة عليهم السلام لا تكاد تطلق على غيرهم وإن جاز الإِطلاق بحسب اللغة ومادتها موضوعة بجميع تراكيبها لما يتضمن الكشف كسفرت المرأة إذا كشفت القناع عن وجهها والباء قيل متعلقة بـ ﴿مطهرة﴾ وقيل بمضمر هو صفة أخرى لـ ﴿صحف﴾ ﴿كِرَامٍ﴾ أي أعزاء على الله تعالى معظمين عنده عز وجل فهو من الكرامة بمعنى التوقير أو متعطفين على المؤمنين يستغفرون لهم ويرشدونهم إلى ما فيه الخير بالإِلهام وينزلون بما فيه تكميلهم من الشرائع فهو من الكرم ضد اللؤم ﴿بَرَرَةٍ﴾ أي أتقياء وقيل مطيعين الله تعالى من قولهم فلان يبر خالقه أي يطيعه وقيل صادقين من بر في يمينه وهو جمع بر لا غير، وأما أبرار فيكون جمع بر كرب وأرباب وجمع بار كصاحب وأصحاب وإن منعه بعض النحاة لعدم اطّراده واختص على ما قيل الجمع الأول بالملائكة والثاني بالآدميين في القرآن ولسان الشارع ﷺ وكان ذلك لأن الأبرار من صيغ القلة دون البررة، ومتقو الملائكة أكثر من متقي الآدميين فناسب استعمال صيغة القلة وإن لم ترد حقيقتها في الآدميين دونهم. وقال الراغب. خص البررة بهم من حيث إنه أبلغ من أبرار فإنه جمع بر وأبرار جمع بار، وبر أبلغ من بار كما أن عدلاً أبلغ من عادل وكأنه عنى أن الوصف ببر أبلغ لكونه من قبيل الوصف بالمصدر من الوصف ببار لكن قد سمعت أن أبراراً يكون جمع بر كما يكون جمع بار وأيضاً في كون الملائكة أحق بالوصف بالأبلغ بالنسبة إلى الآدميين مطلقاً بحث. وقيل: إن الأبرار أبلغ من البررة إذ هو جمع بار والبررة جمع بر وبار أبلغ منه لزيادة بنيته ولما كانت صفات الكمال في بني آدم تكون كاملة وناقصة وصفوا بالأبرار إشارة إلى مدحهم بأكمل الأوصاف، وأما الملائكة فصفات الكمال فيهم لا تكون ناقصة فوصفوا بالبررة لأنه يدل على أصل الوصف بقطع النظر عن المبالغة فيه لعدم احتياجهم لذلك وإشارة لفضيلة البشر لما فيَ كونهم أبراراً من المجاهدة وعصيان داعي الجبلة وفيه ما لا يخفى ومن استعمال البررة في الملائكة ما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأه وهو عليه شاق له أجران».

﴿قُتِلَ الإِنْسانُ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات وأفظعها ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ تعجيب من إفراطه في الكفران وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه والمراد به إما من استغنى عن القرآن الكريم الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للإِقبال

عليه والإيمان به، وإما الجنس باعتبار انتظامه له ولأمثاله من أفراده ورجح هذا بأن الآية نزلت على ما أخرج ابن للمنذر عن عكرمة في عتبة بن أبي لهب غاضب أباه فأسلم ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام، فبعث إلى رسول الله ﷺ إنه كافر برب النجم إذا هوى فقال ﷺ: «اللهم ابعث عليه كلبك حتى يفترسه» فلما كان في أثناء الطريق ذكر الدعاء فجعل لمن معه ألف دينار إن أصبح حياً فجعلوه وسط الرفقة والمتاع حوله فأقبل أسد إلى الرحال ووثب فإذا هو فوقه فمزقه فكان أبوه يندبه ويبكي عليه ويقول: ما قال محمد ﷺ شيئاً قط إلاّ كان وسيأتي إن شاء الله تعالى خبر في هذه القصة أطول من هذا الخبر فلا تغفل ثم إن هذا كلام في غاية الإيجاز. وقد قال جار الله: لا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطاً في المذمة مع تقارب طرفيه ولا أجمع للأئمة على قصر متنه حيث اشتمل على ما سمعت من الدعاء مراداً إذ لا يتصور منه تعالى لازمه وعلى التعجب المراد به لاستحالته عليه سبحانه التعجيب لكل سامع. وقال الإمام: إن الجملة الأولى تدل على استحقاقهم أعظم أنواع العقاب عرفاً، والثانية تنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعاً ولم يسمع ذلك قبل نزول القرآن وما نسب إلى امرىء القيس من قوله:

يتمنى المرء في الصيف الشتا ... فإذا جاء الشتا أنكره

فهو لا يرضى بحال واحد ... قتل الإنسان ما أكفره

لا أصل له ومن له أدنى معرفة بكلام العرب لا يجهل أن قائل ذلك مولد أراد الاقتباس لا جاهلي، وجوز بعضهم أن يكون قوله تعالى ﴿قتل الإنسان﴾ خبراً عن أنه سيقتل الكفار بإنزال آية القتال وعبر بالماضي مبالغة في أنه سيتحقق ذلك وليس بشيء ونحوه ما قيل إن ﴿ما﴾ استفهامية أي أي شيء أكفره أي جعله كافراً بمعنى لا شيء يسوغ له أن يكفر. وقوله تعالى ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ شروع في بيان إفراطه في الكفران بتفصيل ما أفاض عز وجل عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لأن تقابل بالشكر والطاعة مع إخلاله والاستفهام قيل للتحقير وذكر الجواب أعني قوله تعالى ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ لا يقتضي أنه حقيقي لأنه ليس بجواب في الحقيقة بل على صورته وهو بدل من قوله سبحانه ﴿من أي شيء خلقه﴾ وجوز أن يكون للتقرير والتحقير مستفاد من شيء المنكر وقيل التحقير يفهم. أيضاً من قوله سبحانه ﴿من نطفة﴾ الخ أي من أي شيء حقير مهين خلقه من نطفة مذرة خلقه ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال فالتقدير بمعنى التهيئة لما يصلح ولذا ساغ عطفه بالفاء دون التسوية لأن الخلق بمعنى التقدير بهذا المعنى أو يتضمنه فلا تصلح الفاء وجوز أن يكون هذا تفصيلاً لما أجمل أولاً في قوله تعالى ﴿من أي شيء خلقه﴾ أي فقدره أطوار إلى أن أتم خلقه ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي ثم سهل مخرجه من البطن كما جاء في رواية عن ابن عباس بأن فتح فم الرحم ومدد الأعصاب في طريقه ونكس رأسه لأسفل بعد أن كان في جهة العلو. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وأبي صالح والسدّي المراد بـ ﴿السبيل﴾ سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان وتيسيره له هو هبة العقل وتمكينه من النظر. وقال مجاهد والحسن وعطاء وهو رواية عن الحبر أيضاً: هو سبيل الهدى والضلال أي سهل له الطريق الذي يريد سلوكه من طريق الخير والهدى وطريق الشر والضلال بأن أقدره عز وجل على كل ومكنه منه والإقدار على المراد نعمة ظاهرة بقطع النظر عن خيريته وشريته فلا يرد عليه أنه كيف يعد تسهيل طريق الشر والضلال من النعم وقل إنه عد منها لأنه لو لم يكن مسهلاً كسبيل الخير لم يستحق المدح والثواب بالإعراض عنه وتركه مبني على القول بأن ترك المحرم كالزنا مع عدم القدرة عليه

لعنة مثلاً لا يثاب عليه وقيل يثاب ويمدح عليه إذا قدر التارك في نفسه أنه لو تمكن لم يفعل. وقال بعضهم: العجز عن الشر نعمة وأنشد:

جكونه شكر ابن نعمت كزارم ... كه زور مر دم أزاري ندارم

ونصب السبيل بمضمر يفسره الظاهر وفيه مبالغة في التيسير وتمكين في النفس بسبب التكرير. قيل: وفي تعريفه باللام دون الإضافة إشعار بعمومه فإنه لو قيل سبيله أوهم أنه على التوزيع وإن لكل إنسان سبيلاً يخصه وخص بعضهم هذه النكتة بالمعنى الأخير للسبيل فتدبر. وعلى هذا المعنى قيل إن فيه إيماءً إلى أن الدنيا طريق المقصد غيرها لما أشعرت به الآية من أن الميسر سبيل المكلفين الذي يترتب عليه الثواب والعقاب وفيه خفاء وأيّاً ما كان فالضمير المنصوب في ﴿يسره﴾ للسبيل وليس في التفكيك لبس حتى يكون نقصاً في البيان ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي جعله ذا قبر توارى فيه جيفته تكرمة له ولم يجعله مطروحاً على الأرض يستقذره من يراه وتقتسمه السباع والطير إذا ظفرت به كسائر الحيوان والمراد من جعله إذا قبر أمره عز وجل بدفنه يقال: قبر الميت إذا دفنه بيده، ومنه قول الأعشى:

لو أسندت ميتاً إلى نحرها ... عاش ولم ينقل إلى قابر

وأقبره إذا أمر بدفنه أو مكّن منه ففي الآية إشارة إلى مشروعية دفن الإنسان وهي مما لا خلاف فيه وأما دفن غيره من الحيوانات فقيل هو مباح لا مكروه وقد يطلب لأمر مشروع يقتضيه كدفع أذى جيفته مثلاً وعد الإماتة من النعم لأنها وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم، وخصت هذه النعم بالذكر لما فيها من ذكر أحوال الإنسان من ابتدائه إلى انتهائه وما تتضمن من النعم التي هي محض فضل من الله فإذا تأمل ذلك العاقل علم قبح الكفر وكفران نعم الرب سبحانه وتعالى فشكره جل وعلا بالإيمان والطاعة ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي إذا شاء إنشاره أنشره على القاعدة المعروفة في حذف مفعول المشيئة وفي تعليق الإنشار بمشيئته تعالى إيذان بأن وقته غير معين أصلاً بل هو تابع لها وهذا بخلاف الإماتة فإن وقتها معين إجمالاً على ما هو المعهود في الأعمار الطبيعية وكذا الحال في وقت الإقبار بل هو أظهر في ذلك. وقرأ شعيب بن الحجاب كما في كتاب اللوامح وابن أبي حمزة كما في تفسير ابن عطية «نشره» بدون همزة وهما لغتان في الإحياء وقوله تعالى ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عما هو عليه من كفران النعم البالغ نهايته وقوله سبحانه ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ بيان لسبب الردع و ﴿لما﴾ نافية جازمة ونفيها غير منقطع و ﴿ما﴾ موصولة وضمير ﴿أمره﴾ إما للإنسان كالمستتر في يقض والعائد إلى الموصول محذوف أي به أو للموصول على الحذف والإيصال والعائد إلى الإنسان محذوف أي إياه قيل والثاني أحسن لأن حذف المفعول أهون من حذف العائد إلى الموصول والمراد بما أمره جميع ما أمره والمعنى على ما قال غير واحد لم يقض من أول زمانه تكليفه إلى زمان أمانته وإقباره أو من لدن آدم عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده جميع ما أمره فلم يخرج من جميع أوامره تعالى إذ لا يخلو أحد عن تقصير ما، ونقل هذا عن مجاهد وقتادة وفيه حمل عدم القضاء على نفي العموم وتعقب بأنه لا ريب في أن مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم جناية الإنسان وتحقيق كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم وظاهر أن ذلك لا يتحقق بهذا القدر من نوع تقصير لا يخلو عنه أحد من أفراده واختير أن يحمل عدم القضاء على عموم النفي إما على أن المحكوم عليه هو الإنسان المستغني أو هو الجنس لكن لا على الإطلاق بل على أن مصداق الحكم بعدم القضاء بعض أفراده وقد أسند إلى الكل كما في قوله

تعالى ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ [إبراهيم: ٣٤] وإما على أن مصداقه الكل من حيث هو كمل بطريق رفع الإيجاب الكلي دون السلب الكلي فالمعنى لما يقض جميع أفراده ما أمره بل أخل به بعضها بالكفر والعصيان مع أن مقتضى ما فصل من فنون النعماء الشاملة للكل أن لا يختلف عنه أحد. وعن الحسن أن ﴿كلا﴾ بمعنى حقاً فيتعلق بما بعده أي حقاً لم يعمل بما أمره به. وقال ابن فورك: الضمير في ﴿يقض﴾ لله تعالى أي لم يقض الله تعالى لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان بل أمره إقامة للحجة عليه لما يقض له ولا يخفى بعده. والظاهر عليه أن ﴿كلاب﴾ بمعنى حقاً أيضاً وقوله سبحانه ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ على معنى إذا كان هذا حال الإنسان وهو أنه إلى الآن لم يقض ما أمره مع أن مقتضى النعم السابقة القضاء فلينظر إلى طعامه الخ لعله يقضي. وفي الحواشي العصامية لا يخفى ما في قوله تعالى ﴿لما يقض ما أمره﴾ من كمال تهييج الإنسان وتحريضه على امتثال ما يعقبه من الأمر بالنظر وتفريع الأمر عليه مبني على أن الائتمار كما ينبغي أن يتيسر بعد الارتداع عما هو عليه، والظاهر أن المراد بالإنسان هنا نحو ما أريد به في قوله تعالى ﴿قتل الإنسان﴾ ولما جوز صاحب الحواشي المذكورة حمل عدم القضاء على السلب الكلي وجعل الكلام في الإنسان المبالغ في الكفر قال: فالمراد بضمير ﴿يقض﴾ غير الإنسان الذي أمر بالنظر فإنه عام فلذا أظهر وتضمن ما مر ذكر النعم الذاتية أي ما يتعلق بذات الإنسان من الذات نفسها ولوازمها، وهذا ذكر النعم الخارجية المقابلة لذلك وقيل: الأولى نعم خاصة والثانية نعم عامة. وقيل: تلك نعم متعلقة بالحدوث وهذه نعم متعلقة بالبقاء وفيه نظر. والظاهر أن المراد بالطعام المطعوم بأنواعه واقتصر عليه ولم يذكر المشروب لأن آثار القدرة فيه أكثر من آثارها في المشروب واعتبار التغليب لا يخفى ما فيه.

أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

وقوله تعالى ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ﴾ بدل منه بدل اشتمال فإنه لكونه من أسباب تكونه كالمشتمل عليه والعائد محذوف أي صببنا له، وجوز كونه بدل كل من كل على معنى فلينظر الإنسان إلى إنعامنا في طعامه إنا صببنا إلخ وهو كما ترى وأيًا ما كان فالمقصود بالنظر هو البدل وبذلك يضعف ما روي عن أبيّ وابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم أن المعنى فلينظر إلى طعامه إذا صار رجيعاً ليتأمل عاقبة الدنيا وما تهالك عليه أهلها، ولَعمري إن هذا بعيد الإرادة عن السياق ولا أظن أنه وقع على صحة روايته عن هؤلاء الأجلّة الاتفاق. وظاهر الصب يقتضي تخصيص الماء بالغيث وهو المروي عن ابن عباس وجوز بعضهم إرادة الأعم. وقال: إن في كل ماء صباً من الله تعالى بخلق أسبابه على أصول النباتات وأنت تعلم أن إيصال الماء إلى أصول النباتات يبعد تسميته صباً وتأكيد الجملة للاعتناء بمضمونها مع كونها مظنة لإنكار القاصر لعدم الإحساس بفعل من الله تعالى وإنما يعرف الاستناد إليه عز وجل بالنظر الصحيح. وقرأ الأكثر «إنَّا» بالكسر على الاستئناف البياني كأنه لما أمر سبحانه بالنظر إلى ما رزقه جل وعلا من أنواع المأكولات قيل كيف أحدث ذلك وأوجد بعد أن لم يكن فقيل ﴿أنَّا صببنا﴾ إلخ وقرأ الإمان الحسين ابن أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجههما ورضي سبحانه

عنهما «أنى صببنا» بفتح الهمزة والإمالة على معنى فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء ﴿صَبّاً﴾ عجيباً ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ﴾ أي بالنبات كما قال ابن عباس ﴿شَقّاً﴾ بديعاً لائقاً بما يشقها من النبات صغراً وكبراً وشكلاً وهيئة. وقيل: شقها بالكراب وإسناده إلى ضميره تعالى مجاز من باب الإسناد إلى السبب وإن كان الله تعالى عز وجل هو الموجد حقيقة فقد تبين في موضعه أن إسناد الفعل حقيقة لمن قام به لا من صدر عنه إيجاداً ولهذا يشتق اسم الفاعل له وتعقب بأنه يأباه كلمة ثم والفاء في قوله تعالى ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً﴾ فإن الشق بالمعنى المذكور لا ترتب بينه وبين الإمطار أصلاً ولا بينه وبين إنبات الحب بلا مهلة فإن المراد بالنبات ما نبت من الأرض إلى أن يتكامل النمو وينعقد الحب فإن انشقاق الأرض بالنبات لا يزال يتزايد ويتسع إلى تلك المرتبة على أن مساق النظم الكريم لبيان النعم الفائضة من جنابه تعالى على وجه بديع خارج عن العادات المعهودة كما ينبىء منه إرداف الفعلين بالمصدرين فتوسيط فعل المنعم عليه في حصول تلك النعم مخل بالمرام وللبحث فيه مجال. وقيل عليه أيضاً إن الشق بالكراب لا يظهر في العنب والزيتون والنخل وأجيب بأنه ليس من لوازم العطف تقييد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه ويحتمل أن يكون ذكر الكراب في القيل على سبيل التمثيل، أو أريد به ما يشمل الحفر وجوز أن يكون المراد شقها بالعيون على أن المراد بصب الماء إمطار المطر وبهذا إجراء الأنهار، وتعقب بأنه يأباه ترتب الشق على صب الماء بكلمة التراخي وأيضاً ترتيب الإنبات على مجموع الصب والشق بالمعنى المذكور لا يلائم قوله تعالى ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حباً﴾ [النبأ: ١٤، ١٥] الآية لإشعارة باستقلال الصب وإنزال الغيث في ذلك، ودفعاً بأن ماء العيون من المطر لا من الأبخرة المحتبسة في الأرض ولا يخفى على ذي عين أن هذا الوجه بعيد متكلف. والمراد بالحب جنس الحبوب التي يتقوت بها وتدخر كالحنطة والشعير والذرة وغيرها ﴿وَعِنَباً﴾ معروف ﴿وَقَضْباً﴾ أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال هو الفصفصة وقيدها الخليل بالرطبة وقال: إذا يبست فهي القت وسميت بمصدر قضبه أي قطعة مبالغة كأنها لتكرر قطعها وتكثره نفسه القطع، وضعف هذا من فسر الأب بما يشمل ذلك وقيل هو كل ما يقضب ليأكله ابن آدم غضاً من النبات كالبقول والهليون. وفي البحر عن الحبر إنه الرطب وهو يقضب من النخل واستأنس له بذكره مع العنب ولا يخفى ما فيه ﴿وَزَيْتُوناً ونخلاً﴾ هما معروفان﴿وَحَدَائِقَ﴾ رياضاً ﴿غُلْباً﴾ أي عظاماً وأصله جمع أغلب وغلباء صفة العنق وقد يوصف به الرجل لكن الأول هو الأغلب ومنه قول الأعشى:

يمشي بها غلب الرقاب كأنهم ... بزل كسين من الكحيل[1] جلالا

ووصف الحدائق بذلك على سبيل الاستعارة شبه تكاثف أوراق الأشجار وعروقها بغلظ الأوداج وانتفاخ الأعصاب مع اندماج بعضها في بعض في غلظ الرقبة إلا أن الغلظ في الأشجار أقوى لأن الأمر بالعكس نظراً إلى الاندماج وتقوّي البعض بالبعض حتى صارت شيئاً واحداً، وجوز أن يكون هناك مجاز مرسل كما في المرسن بأن يراد بالأغلب الغليظ مطلقاً، وتجوز في الإسناد أيضاً لأن الحدائق نفسها ليست غليظة بل الغليظ أشجارها. وقال بعض: المراد بالحدائق نفس الأشجار لمكان العطف على ما في حيز أنبتنا فلا تغفل ﴿وَفَاكِهَةً﴾ قيل هي الثمار كلها وقيل بل هي الثمار ما عدا العنب والرمان وأيّا ما كان فذكر ما يدخل فيها

---

(١) الكحيل مصغر وهو النفط يطلى به الجرب اهـ منه.

أولاً للاعتناء بشأنه ﴿وَأَبًّا﴾ عن ابن عباس وجماعة إنه الكلأ والمرعى من أبهَّ إذا أمّه وقصده لأنه يؤم ويقصد أو من أب لكذا إذا تهيأ له لأنه متهيء المرعى ويطلق على نفس مكان الكلأ ومنه قوله:

جِذْمنا قيس ونجد دارنا ولنا الأب بها والمكرع

وذكر بعضهم أن ما يأكله الآدميون من النبات يسمى الحصيدة والحصيد، وما يأكله غيرهم يسمى الأب وعليه قول بعض الصحابة يمدح النبي ﷺ:

له دعوة ميمونة ريحها الصبا بها ينبت الله الحصيدة والأبا

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك أنه التبن خاصة وقيل هو يابس الفاكهة لأنها تؤب وتهيأ للشتاء للتفكه بها. وأخرج أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عن الأب ما هو؟ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله تعالى ما لا أعلم. وأخرج ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم عن أنس أن عمر رضي الله تعالى عنه قرأ على المنبر ﴿فأنبتنا فيها حباً وعنباً ـ إلى قوله ــ وأبا﴾ فقال: كل هذا قد عرفناه فما الأب ثم رفع عصا كانت في يده فقال هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب ابتغوا مابيَّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به وما لم تعرفوه فكِلُوه إلى ربه وفي صحيح البخاري من رواية أنس أيضاً أنه قرأ ذلك وقال: فما الأب؟ ثم قال: ما كلفنا أو ما أمرنا بهذا. ويتراءى من ذلك النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته. وفي الكشاف لم يذهب إلى ذلك ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفاً فأراد رضي الله تعالى عنه أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره وقد علم من فحواها أن الأب بعض ما أنبت سبحانه للإنسان متاعاً له أو لأنعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر له عز وجل على ما تبين لك، ولم يشكل مما عدد من نعمته تعالى ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له واكتف بالمعرفة الجملية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت، ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن انتهى. وهو قصارى ما يقال في توجيه ذلك لكن في بعض الآثار عن الفاروق كما في الدر المنثور ما يبعد فيه إن صح هذا التوجيه بقي شيء وهو أنه ينبغي أن خفاء تعيين المراد من الأب على الشيخين رضي الله تعالى عنهما ونحوها من الصحابة وكذا الاختلاف فيه لا يستدعي كونه غريباً مخلاً بالفصاحة وأنه غير مستعمل عند العرب العرباء وقد فسره ابن عباس لابن الأزرق بما تعتلف منه الدواب واستشهد به بقول الشاعر:

ترى به الأب واليقطين مختلطاً

ووقع في شعر بعض الصحابة كما سمعت ومن تتبع وجد غير ذلك. ﴿مَتاعاً لَكُمْ وَلأَنعامكم﴾ قيل إما مفعول له أي فعل ذلك تمتيعاً لكم ولمواشيكم فإن بعض النعم المعدودة طعام لهم وبعضها علف لدوابهم ويوزع وينزل كل على مقتضاه والالتفات لتكميل الامتناع، وإما مصدر مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائد أي متعكم بذلك متاعاً أو لفعل مرتب عليه أي فتمتعتم بذلك متاعاً أي تمتعاً أو مصدر من غير لفظه فإن ما ذكر

(١) جذمنا بكسر الجيم أي أصلنا اهـ منه.

من الأفعال الثلاثة في معنى التمتيع وقد مر الكلام في نظيره فتذكر ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ شروع في بيان أحوال معادهم بعد بيان ما يتعلق بخلقهم ومعاشهم والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما يشعر به لفظ المتاع من سرعة زوال هاتيك النعم وقرب اضمحلالها. و ﴿الصاخة﴾ هي الداهية العظيمة من صخ بمعنى أصاخ أي استمع والمراد بها النفخة الثانية، ووصفت بها لأن الناس يصخون لها فجعلت مستمعة مجازاً في الظرف أو الإسناد. وقال الراغب ﴿الصاخة﴾ شدة صوت ذي النطق، يقال: صخ يصخ فهو صاخ فعليه هي بمعنى الصائحة مجازاً أيضاً. وقيل: مأخوذة من صخه بالحجر أي صكه. وقال الخليل: هي صيحة تصخ الآذان صخاً أي تصمها لشدة وقعتها، ومنه أخذ الحافظ أبو بكر بن العربي قوله ﴿الصاخة﴾ هي التي تورث الصمم وإنها لمسمعة وهو من بديع الفصاحة كقوله:

أصم بك الداعي وإن كان أسمعا

ثم قال: ولعمر الله تعالى إن صيحة القيامة مسمعة تصم عن الدنيا وتسمع أمور الآخرة. والكلام في جواب ﴿إذا﴾ وفي ﴿يوم﴾ من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْـمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وأَبِـيهِ وَصَاحِبَتِهِ﴾ أي زوجته ﴿وبَنِـيهِ﴾ على نحو ما تقدم في النازعات فتذكره فما في العهد من قدم أي يوم يعرض عنهم ولا يصاحبهم. ولا يسأل عن حالهم كما في الدنيا لاشتغاله بحال نفسه كما يؤذن به قوله تعالى ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأن يُغْنِيهِ﴾ فإنه استئناف وارد لبيان سبب الفرار وجعله جواب ﴿إذا﴾ والاعتذار عن عدم التصدير بالفاء بتقدير الماضي بغير قد أو المضارع المثبت أو بالفاء إبدال يوم يفر المرء عنه إياه لأن البدل لا يطلب جزاء لا يخفى حاله على من شرط الإنصاف على نفسه أي لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل يكفيه في الاهتمام به. وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي والحاكم وصححه عن أم المؤمنين سودة بنت زمعة قالت: قال النبي ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان» قلت: يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «شغل الناس عن ذلك» وتلا ﴿يوم يفر﴾ الآية. وجاء في رواية الطبراني عن سهل بن سعد أنه قيل له عليه الصلاة والسلام: ما شغلهم؟ فقال ﷺ: «نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل». وقيل يفر منهم لعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً وكلام الكشاف يشعر بذلك ويأباه ما سمعت وكذا ما قيل يفر منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات يقول الأخ لم تواسني بمالك، والأبوان قصرت في برنا، والصاحبة أطعمتني الحرام وفعلت وصنعت، والبنون لم تعلمنا ولم ترشدنا ويشعر بذلك ما أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن قتادة قال: ليس شيء أشد على الإنسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يكون يطلبه بمظلمة. ثم قرأ ﴿يوم يفر﴾ الآية وذكر المرء بناء على أنه الرجل لا الإنسان ليعلم منه حال المرأة من باب أولى. وقيل: هو من باب التغليب وفيه نظر وجعل القاضي ذكر المتعاطفات على هذا النمط من باب الترقي على اعتبار الأب على الأم سابقاً على عطفهما على الأخ فيكون المجموع معطوفاً عليه وكذا في ﴿صاحبته وبنيه﴾ فقال: تأخير الأحب فالأحب للمبالغة كأنه قيل: يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه، ولا يخفى تكلفه مع اختلاف الناس والطباع في أمر الحب ولعل عدم مراعاة ترق أو تدل لهذا الاختلاف مع الرمز إلى أن الأمر يومئذ أبعد من أن يخطر بالبال فيه ذلك. ورُوي عن ابن عباس أنه يفر قابيل من أخيه هابيل، ويفر النبي ﷺ من أمه، ويفر إبراهيم عليه السلام من أبيه، ويفر نوح عليه السلام من ابنه، ويفر لوط عليه السلام من امرأته. وفي خبر رواه ابن عساكر عن الحسن نحو ذلك وفيه فيرون أن هذه الآية أعني يوم يفر

الخ نزلت فيهم وكلا الخبرين لا يعول عليهما ولا ينبغي أن يلتفت إليهما كما لا يخفى والذي أدين الله تعالى به نجاة أبويه ﷺ وقد ألفت رسائل في ذلك رغماً لأنف علي القاري ومن وافقه وأعتقد أن جميع آبائه عليه الصلاة والسلام لا سيما من ولداه بلا واسطة أوفر الناس حظاً مما أوتي هناك من السعادة والشرف وسمو القدر:

كم من أب قد سما بابن ذرى شرف   كما سما برسول الله عدنان

وقرأ ابن محيصن وابن أبي عبلة وحميد وابن السميفع «يَعْنيه» بفتح الياء وبالعين المهملة أي يهمه من عناه الأمر إذا أهمه أي أوقعه في الهم ومنه قوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» لا من عناه إذا قصده كما زعمه أبو حيان. وقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ بيان لمآل أمر المذكورين وانقسامهم إلى السعداء والأشقياء بعد ذكر وقوعهم في داهية دهياء ف ﴿وجوه﴾ مبتدأ وسوغ الابتداء به كونه في حيز التنويع كما مر و ﴿مسفرة﴾ خبره و ﴿يومئذ﴾ متعلق به أي مضيئة متهللة من أسفر الصبح إذا أضاء وعن ابن عباس إن ذلك من قيام الليل. وعن الضحاك من آثار الوضوء فيختص ذلك بهذه الأمة أي لأن الوضوء من خواصهم قيل أي بالنسبة إلى الأمم السابقة فقط لا مع أنبيائهم عليهم السلام وقيل من طول ما اغبرّت في سبيل الله تعالى ﴿ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي مسرورة بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة ﴿ووُجوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي غبار وكدورة ﴿تَرْهَقُها﴾ أي تعلوها وتغشاها﴿قَتَرَةٌ﴾ أي سواد وظلمة ولا ترى أوحش من اجتماع الغرة والسواد في الوجه وسوّى الفيروزآبادي والجوهري بين الغبرة والقترة فقيل المراد بالقترة الغبار حقيقة، وبالغبرة ما يغشاهم من العبوس من الهم. وقيل: هما على حقيقتهما والمعنى أن عليها غباراً وكدورة فوق غبار وكدورة. وقال زيد بن أسلم: الغبرة ما انحطت إلى الأرض والقترة ما ارتفع إلى السماء، والمراد وصول الغبار إلى وجوههم من فوق ومن تحت والمعول عليه ما تقدم. وقرأ ابن أبي عبلة «قَتْرَة» بسكون التاء ﴿أولَئِكَ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتهم في سوء الحال أي أولئك الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ﴾ أي الجامعون بين الكفر والفجور فلذلك جمع الله تعالى لهم بين الغبرة والقترة وكان الغبرة للفجور والقترة للكفور نعوذ بالله عز وجل من ذلك.